

التوحيد الخالص

في

ضوء الكتاب والسنة

الدكتور

عبد العزيز موسى الديور

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر — بدسوق (بنين)

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثم أما بعد ؛؛؛

إن العقيدة هي أساس المجتمع الإسلامي والتوحيد هو جوهر العقيدة وأصل الدين وروح الإسلام وحماية هذا التوحيد هو أول ما يسعى إليه الإسلام لأنه الأساس الذي تبنى عليه صحة الأعمال وقبولها وبه تحصل السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة. فالتوحيد يعصم الدم والمال في الدنيا ويحرم الاعتداء عليهما بغير حق ففي الحديث : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" (١) .

وفي الحديث : "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل" (٢) .

والتوحيد الخالص الذي تحصل به السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة هو : القائم على العلم به تعالى : "فأعلم أنه لا إله إلا الله" (٣) .

(١) صحيح مسلم .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة محمد : الآية ١٩ .

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم" (١).

"وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (٢).

وسن عثمان رضي الله عنه قال : من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة (٣).
ويقول النبي ﷺ : "والله إنني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده" (٤). وأمر نبيه ﷺ أن يعلن : "قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون" (٥).

□ القائم على اليقين : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة" (٦).

وفي حديث طويل "... فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة" (٧).

□ والقائم على الإخلاص : "قل أني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين" (٨).
"فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون" (٩).

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٣ .

(٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٢١٨ .

(٤) الإيمان لابن تيمية ص ٢٠ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٦٤ .

(٦) صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٢ : ٢٢٦ .

(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٧ .

(٨) سورة الزمر : الآيتان ٣، ٢ .

(٩) سورة غافر : الآية ١٤ .

وفي الحديث : "أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه
أو نفسه" (١).

وفي الحديث : "أن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك
وجه الله" (٢).

"فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه
أحدًا" (٣).

وفي الحديث : "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه
غيري تركته وشركه" (٤).

والقائم على الصدق . ففي الحديث : "... ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمدا رسول الله صادقا من قلبه إلا حرمه الله على النار" (٥).

"ومن مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صادقا من قلبه
دخل الجنة" (٦).

والتصديق الحقيقي بـ لا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها
وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة يقول ابن رجب رحمه الله :
من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٣٠ عن أبي هريرة .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٨٦ عن عقبان بن مالك .

(٣) سورة الكهف : الآية ١١٠ .

(٤) صحيح مسلم ج ١٨ ص ١١٥ عن أبي هريرة .

(٥) صحيح البخاري ج ١ ص ٣٧ عن معاذ بن جبل .

(٦) المسند ج ٥ ص ٢٢٩ .

كذب فعله وقوله ونقص من كمال توحيدہ بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى (١).

فهذا التوحيد كما أشرت يحقق السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة بفضلہ تعالى وكرمه يقول ابن القيم رحمه الله :

ويعفي لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك مالا يعفي لمن ليس كذلك فلولقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ولا يحصل هذا لمن نقص توحيدہ فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يؤجب غسل الذنوب لو كانت قراب الأرض فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي .. " .

أما التوحيد الفاسد فيحبط جميع الأعمال : "ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لأن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين" (٢) "ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون" (٣) .

أما إن كان الفساد بسبب الشرك فيحرم من الجنة ويوجب الخلود في النار "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" (٤) .

"إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار" (٥) .

(١) كلمة الإخلاص ص ٢٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٥ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٨٨ .

(٤) سورة النساء : الآية ١١٦ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٧٢ .

فالتوحيد الخالص إذن يحقق السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة فيجب على المسلم أن يحرص على تجنب ما يسيء إليه أو يمسسه من الشراكيات والخرافات ولبدع ليبقى صافي مضيء كما أراد الله تعالى ولا عجب في دين من قواعد شريعته سد الذرائع إلى المفسد أن يسد كل المنافذ التي يتسرب منها إلى العقول أو القلوب شرك جلي أو خفي أو مشابهة للوثنيين وأهل الغلو في الدين ولا سيما وأنه لا يشرع لجيل أو جيلين وإنما يشرع للبشرية كلها في شتى بقاعها حتى قيام الساعة .

ويطيب لي بين يدي هذا البحث أن أذكر المباحث التي اشتمل عليها هذا البحث وهي كما يلي :

الأول : تنزيه الله تعالى عن كل ما يوهم الندية والمساواة والمماثلة والمشابهة بين الله تعالى وخلقه حماية للتوحيد وسداً للذريعة المشابهة .

وتتكون هذا المبحث من نقطتين :

(أ) إفراده تعالى بصفات الكمال ونفي المماثلة والمشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوق .

(ب) النهي عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الخالق والمخلوق .

الثاني : تجريد الأنبياء والرسل عليهم السلام مما هو من خصائص ربوبيته وألوهيته سبحانه حماية للتوحيد وسداً للذريعة المشاركة أو المشابهة بين المخلوق والخالق .

الثالث : النهي عن الغلو في الدين صيانة لمقام التوحيد .

الرابع : حرب الإسلام على الأوهام والخرافات والأباطيل لما لها من خطر على التوحيد والعقل والسلوك .

والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل ؛؛؛



المبحث الأول

تَقِيْمُ الْمَقَامِ
مِنْ عِلْمِهِمْ
الْفَنِيَّةِ وَالْمَسَاوَاتِ
وَالْمَعَالِقَةِ وَالْمَشْرِيقَةِ
بِسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَلْقِهِ
حَامِيَةِ الْمَقَامِ
وَالْمَعَالِقَةِ وَالْمَشْرِيقَةِ



يقول الله تعالى في شأن الكافرين الذين يشركون به ويجعلون له
عديلا ونظيرا :

"الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين
كفروا بربهم يعدلون" (١) .

"ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم
يعدلون" (٢) .

"أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق
ذات بهجة ما كان أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون" (٣) .

(١) سورة الأنعام : الآية ١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٠ .

(٣) سورة النمل : الآية ٦٠ .

أي يشركون به ويجعلون له عدلا ونظيرا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .
والإسلام يدعو في وضوح إلى تنزيه الله تعالى عن النقص والمثال ويقرر أن كل
كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به وأولى وكل نقص وعيب ومماثلة ومثابهة
فهو سبحانه منزّه متعال عنه فمن ذلك :

(١)

إفراده تعالى بصفات الكمال ونفى المماثلة والمثابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوق

فالأوجب على المسلم تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق فهو سبحانه لا مثل
له لكمال صفاته "ليس كمثله شيء" وهو السميع البصير" (١) "ولم يكن له كفوا
أحد" (٢)

يقول القرطبي عند تفسير قوله تعالى "ليس كمثله شيء" والذي يعتقد في هذا
الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسن أسمائه وعلى صفاته لا
يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشبه به وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق
والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي إذ صفات القديم جل وعز بخلاف
صفات المخلوق إذ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض وهو تعالى منزّه عن ذلك
وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة
من الصفات ورأى الواسطي رحمه الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم

(١) سورة الشورى : الآية ١١ .

(٢) سورة الإخلاص : الآية ٤ .

ولا كفعله فعل ولا كصيه صيه إلا من جهة موافقة اللغط . وجلت الداب لنديمه ار
يكون لها صفة حديثة كما استحال أن يكون للذات المحدثه صفة قديمة وهذا كله
مذهب أهل الحق والسنة والجماعة^(١) .

ويقول الأستاذ سيد قطب في تفسير الآية المذكورة : "فليس هنالك من شيء
يمثله سبحانه وتعالى والفطرة تؤمن بهذا بداهة فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء
التي هي من خلقه"^(٢) .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري : "من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما
وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه
به رسوله تشبيه ولا تمثيل" .

يقول ابن القيم : "أما الصبر فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم
تنزيها له بصيغة المبالغة ففي الصحيحين من حديث الأعمش عن سعيد بن جبیر عن
أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : "ما أحد أصبر على أذى
سمعه من الله عز وجل يدعون له ولدا وهو يعافيه ويرزقهم" وفي أسمائه الحسنی
الصبور وهو من أمثلة المبالغة . . . وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ولا يماثله من وجوه
متعددة منها أنه عن قدرة تامة ومنها أنه لا يخاف الغوث والعبد إنما يستعجل
الخوف والغوث ومنها أنه لا يلحقه بصره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما .

وضهور أثر الاسم في العالم مشهود بالعيان كظهور اسم الحليم . . . وأما صبره
سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم ومسببتهم له سبحانه وأنواع معاصيهم
وفجورهم فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة بل يصبر على عبده ويمهله

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٥٨٢٨، ٥٨٢٩ .

(٢) الظلال ج ٥ ص ٣١٤٦ .

"ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير" (١).

"الرحمن على العرش استوى" (٢).

"يخافون ربهم من فوقهم" (٣).

"كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا" (٤).

"رضي الله عنهم ورضوا عنه" (٥).

"الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم" (٦).

"ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم" (٧).

"فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" (٨).

وجاء في السنة المطهرة أيضا كثير من هذه الصفات فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : "لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وعزتكم ويزوي بعضها إلى بعض" (٩).

وعن عبد الله بن مسعود قال جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول أنا الملك فضحك

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٨ .

(٢) سورة طه : الآية ٥ .

(٣) سورة النحل : الآية ٥٠ .

(٤) سورة الفجر : الآيتان ٢١، ٢٢ .

(٥) سورة البينة : الآية ٨ .

(٦) سورة الفتح : الآية ٦ .

(٧) سورة محمد : ٢٨ .

(٨) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٩) اللؤلؤ والمرجان ج ٣ ص ٢٩١ .

النبي ﷺ حتى بدت نواجزه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ : "وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون" (١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له" (٢) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : "الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة" (٣) .

وقد أنقسم العلماء تجاه هذه النصوص التي يوهم ظاهرها التشبيه إلى فرقتين :
□ الفرقة الأولى : المشبهة وهم جماعة من الحشوية رأوا الأخذ بظاهر الآيات والأحاديث التي تثبت لله تعالى وجهها ويدين واستواء وجنبا ومجيئا ونزولا وعينا وقدا وإصبعين وصورة وغير ذلك من الأعضاء الجسمانية فأجروها على ظاهرها أعني ما يفهم عند الإطلاق على الأجسام .

ويكفي في الرد على هؤلاء قوله تعالى : "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (٤) ، وقوله تعالى : "قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد" (٥) .

(١) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٨٢ ، ومسلم ج ١٧ ص ١٢٩ .

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ٢٠٠ ، ومسلم ج ٦ ص ٦٣ .

(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٩ ، ومسلم ج ١٧ ص ٦٣ .

(٤) سورة الشورى : الآية ١١ .

(٥) سورة الإخلاص .

□ الفرقة الثانية : المنزهة (السلف - الخلف) وهؤلاء نفوا المماثلة أو المشابهة بين الخالق والمخلوق وبذلك فقد استبعدوا نسبة المعنى الظاهر أو الحرفي للنص إلى الله إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك حول تحديد المعنى المراد وهل للإنسان أن يصرف اللفظ عن ظاهره ثم يحدد المراد بما وراء هذا الظاهر أم ليس للإنسان ذلك وإنما عليه فقط أن يصرف اللفظ عن الظاهر ثم يترك تحديد المراد من النص ويكل علمه إلى الله تعالى .

أما السلف فقالوا : نؤمن أن له يد لا كأيدينا ووجهها لا كوجهنا وله مجيء وصورة لا كمجئتنا ولا كصورتنا ولكننا نفرض علم حقيقة ذلك لله تعالى ويستدلون في ذلك بقوله سبحانه : "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا"^(١) فقد وقفوا عند قوله تعالى : "وما يعلم تأويله إلا الله" ثم جعلوا قوله تعالى : "والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا" كلام مستأنف ويريدون من وراء ذلك أن تأويل الآيات لا يعلم حقيقته إلا الله فالتسليم أولى^(٢) .

ولذلك قال الإمام مالك حينما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أظنك إلا ضالا فأمر به أن يخرج^(٣) وكذا قال الثوري والأوزاعي وأبي حنيفة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الرحمن

(١) د/ عبد الله الشاذلي - الألوهية في الفكر الإسلامي ص ٢٠٣ .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٤٠٨ ، وإجماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ٨٧/٨٨ ، والإتقان للسيوطي

ج ٢ ص ٦ .

(٣) ابن تيمية - مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢١٢ .

بن مهدي ووكيح بن الجراح والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبي عبيدة وغيرهم من أئمة السلف .

يقول الشهرستاني : وقد سلك السلف طريق السلامة فقالوا : نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره ... وقالوا إنما توقفنا في تفسير الآيات وتأويلها لأمرين :

أحدهما : المنح الوارد في التنزيل في قوله تعالى : "فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب" (١) فنحن نحترز عن الزيغ .

والثاني : أن التأويل أمر مطنون بالاتفاق والقول في صفات الباري بالظن غير جائز فربما أولنا الآية على غير مراد الباري تعالى فوقعنا في الزيغ بل نقول كما قال الراسخون في العلم "كل من عند ربنا" آمنا بظاهره وصدقنا بباطنه ووكلنا علمه إلى الله تعالى ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه (٢) .

وأما طريقة الخلف فهم يقرون بأن هذه الصفات غير مراده لله تعالى على ظاهرها ولكنهم لا يتوقفون عند ذلك بل يؤولونها فيقولون المراد بالوجه الذات والاستواء الملك واليد القوة والقدرة والمجيء هو العذاب أو الأمر والصورة والصفة والفوقية التعالي والضحك الرضا وهؤلاء يقفون في الآية السابقة عند قوله تعالى :

(١) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٠٤ .

"وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم" فيعترفون أن الراسخين في العلم يمكنهم تأويل المتشابهات ويكون ما بعد ذلك استئناف .

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي بعد أن أول آيات الصفات :

"وجملة القول في ذلك - أي في مثل هذه الأخبار - أن الذي يلزم المكلف معرفته أنه تعالى لم يكن جسما فيما لم يزل ولا يكون كذلك فيما لا يزال ولا يجوز أن يكون على هذه الصفة بحال من الأحوال" (١) .

ويقول في موضع آخر: "كل ما كان مما لا يجوز إلا على الأجسام يجب نفيه عن الله تعالى وإذا ورد في القرآن آيات تقتضي بظاهرها التشبيه وجب تأويلها لأن الألفاظ معرضة للاحتمال ودليل العقل بعيد عن الاحتمال" (٢) .

أما الأشاعرة فقد انقسموا حول هذه النصوص الموهمة للتجسيم والتشبيه إلى فرقتين كما يقول المقرئ: والأشاعرة يسمون الصفاتية لإثباتهم صفات الله تعالى القديمة ثم افترقوا في الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة كالاستواء والنزول والإصبع واليد والقدم والصورة والجنب والمجيء على فرقتين ، فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ ، وفرقة لم يتعرضوا للتأويل ولا صاروا إلى التشبيه (٣) .

ويقول إمام الحرمين : "ذهب بعض أئمتنا إلى أن اليدين والعينين والوجه صفات ثابتة للرب تعالى والسبيل إلى إثباتها السمع دون قضية العقل" (٤) .

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٠ .

(٢) المحيط بالتكليف ص ٢٠٠ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣١٠ .

(٤) الإرشاد ص ١٥٥ .

ومن الذين ذهبوا إلى إثبات الصفات الخبرية الأشعري وقد صرح بهذا في كتابه الإبانة^(١) والمقالات^(٢) ولكن هل القول بالإثبات ومنع التأويل هو القول الوحيد للأشعري أم أن له قولاً آخر غير ذلك بجواز التأويل .

ذهب ابن تيمية وابن القيم إلى أن القول بإثبات الصفات الخبرية هو القول الوحيد للأشعري وليس له في ذلك قولان أصلاً ولم يذكر أحد عن الأشعري في ذلك قولين^(٣) ولكن بالرجوع إلى كتب علماء المذهب الأشعري ومن حكوا مقالات الفرق وجدنا أنهم يذكرون للأشعري القولين : الإثبات والتأويل ، صرح بذلك كل من الشهرستاني^(٤) والإيجي^(٥) والبغدادى^(٦) .

وبناء على ما تقدم فإنه يكون للأشعري في الصفات الخبرية قولان : قول بالإثبات وقول بالتأويل وبهذا يظهر عدم صحة ما ذهب إليه ابن تيمية وابن القيم في قولهما أنه ليس للأشعري في ذلك قولان أصلاً ولم يذكر أحد عنه في ذلك قولين .

كما أن الجويني ذهب إلى التأويل في كتبه الإرشاد واللمع والشامل أما في كتابه العقيدة النظامية فقد رجع عن التأويل والتزم مذهب السلف في التفويض وترك معاني الآيات والأحاديث التي يوهم ظاهرها المشابهة إلى رب العالمين يقول الجويني : وقد اختلف مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها وإجراؤها على موجب ما تبذره أفهام أرباب اللسان منها فرأى

(١) ص ١٨، ١٧ .

(٢) ج ١ ص ٣٤٨ : ٣٥٠ .

(٣) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول ج ١ ص ١١٤ : ١٣٥ .

(٤) وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٣٣٣ .

(٥) الملل والنحل ج ١ ص ١٠١ .

(٦) أصول الدين ص ٢٢٣ .

بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في أي الكتاب وما يصح من سنن الرسول ﷺ .
وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردنا وتفويض
معانيها إلى الرب تعالى والذي نرتضيه رأياً وندين لله به عقلاً اتباع سلف الأمة
فالأولى الاتباع وترك الابتداع ، والدليل السمعى القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة
متبعة وهو مستند معظم الشريعة ... (١) .

فقد اتضح لنا من خلال ما سبق أن مذهب السلف في الآيات والأحاديث
التي تتعلق بصفات الله تعالى أن يبروها على ما جاءت عليه ويسكتوا عن تفسيرها أو
تأويلها وأن معظم مذهب الخلف أن يؤولوها بما يتفق مع تنزيه الله تعالى عن
مشابهة خلقه وأنا اعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى
الله تعالى أولى وانفع وأسلم وأنجى وأبعد عن الوقوع في خطأ التأويل ومن تعيين معنى
قد لا يكون مراد الله تعالى والتزام طريق السلامة في محيط العقيدة أحق من الضرب
في مباحات العقل ومن اتباع طريق الظن والتخمين والتأويل خاصة وأن الشرع لم
يطالبنا إلا بالإيمان بالله تعالى وبصفاته وينفي كل ما يوهم الندية والمساواة والمماثلة
والمشابهة بين الله تعالى وبين خلقه دون الخوض في التأويل فالتفويض سير في ثبات
وطمأنينة والتأويل جهد متأرجح قد يؤدي بالزلل (٢) .

ولم يرد عن الرسول ﷺ وهو أرسخ الراسخين في العلم تأويل ولو ورد لكان
مدعاة لبتر النزاع وكان حجة على الجميع بالعكس ورد ما يدعو إلى الإمساك عن
التأويل مثل قوله ﷺ : " إذا رأيتم الذين يبتغون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله

(١) العقيدة النظامية ص ٣٢ ، وانظر رأي الإمام الغزالي في فصل التفرقة ص ١٦٠ ، والاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠٢
والجامع العوام ص ٢٤٨ ، ورأي الإمام الرازي في كتابه محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٥٨ ، وأساس
التقديس ص ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٤٠ ، ٢٣٦ .

(٢) أ.د/ عبد الله الشاذلي - التصوف في ميزان الكتاب والسنة ص ٤٢٦ بتصرف خفيف .

فاحذروهم" وفي رواية "فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فأولئك الذين عنى الله فاحذروهم" وقوله ﷺ : "إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فأمنوا به" وفي رواية "فما علمتم منه فقولوا له وما جهلتم فكلوه إلى عالمه" (١).

وهذه الأدلة الصريحة والواضحة ترجح أن نقف في الآية المذكورة على قوله تعالى : "وما يعلم تأويله إلى الله" ومن ناحية أخرى فلو عطفنا قوله تعالى : "والراسخين" على لفظ الجلالة لم يكن لقوله تعالى : "كل من عند ربنا" فائدة تذكر في الآية لأن وجودها وفائدتها مرتبط بحال وقول وتفويض الراسخين وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئا عن الخلق ويثبتته لنفسه ثم يكون له في ذلك شريك (٢) وتعضد هذا ما جاء في قراءة ابن عباس "وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به" وقراءة عبد الله بن مسعود وأبي كعب : "أن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به" (٣).

والتسليم أو التوقيف يقطع على من ابتغى التشابه للفتنة ويصده عن ذلك ولو أغلق هذا الباب جيدا ما استطاعت المجسمة أو المشبهة أن تتسلل إلى أفكارهم من ثقبه وربما يؤدي إلى دخول الراسخ وغير الراسخ فغلق الباب أولى وأوجب ولهذا ضرب عمر بن الخطاب صبيغ بن عسل حتى شج رأسه حين قدم المدينة يسأل عن متشابهة القرآن ولو كان جائزا ما شجه وما ضربه (٤).

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٤٦، ٣٤٧ ، والتصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ٤٢٦ .

(٢) التصوف الإسلامي ص ٤٢٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٤٧ .

(٤) التصوف الإسلامي ص ٤٢٦، ٤٢٧ .

ويحدثنا السادة العلماء أن الصحابة رضي الله عنهم لم يرد عنهم تأويل ولم يكن موضوع الصفات يثار في عهدهم ويتناقش فيه كان هذا المذهب سائدا لا يكاد يشذ عنه فرد .
يقول الجويني في (العقيدة النظامية) : وقد درج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم على ترك التعرض لمعانيها - أي آيات الصفات وأحاديثها - ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة وكانوا لا يألون جهدا في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها فلو كان تأويل هذه الآيات والظواهر مسوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع فحق كل ذي دين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب تبارك وتعالى (١) .

ويقول ابن القيم في (إعلام الموقعين) : "قد تنازع الصحابة في كثير من الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً ولم يبدول شيء منها إبطالا ولا ضربوا لها أمثالا ولم يدفعوا في صدورهم وإعجازها ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً وأجروها على سنن واحد" (٢) .

(١) ص ٣٢، ٣٣ .

(٢) ج ١ ص ٤٩ .

ويقول ابن خلدون في (مقدمته) : "... وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود
بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في أي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في
بابها فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة
والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن الكريم آيات أخرى قليلة توهم
التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا
تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقروها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله ولا
تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والإنعاز له" (١) .
ويقول المقرئ في (الخطوط) : "من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي
ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من
الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن معنى
شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبي
محمد ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات نعم ولا فرق أحد
منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم
والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام
والعز والعظمة وساقوا الكلام سوقا واحدا وهكذا أثبتوا ﷺ ما أطلقه الله على نفسه
الكريمة من الوجه واليدين ونحو ذلك مع نفي مما ثلثة المخلوقين فأثبتوا ﷺ بلا تشبيه
ونزهوا من غير تعطيل ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا
إجراء الصفات كما وردت..." (٢) .

(١) ص ٤٦٣ .

(٢) الخطوط ج ٤ ص ١٨٠ .

ويقول الشوكاني في رسالة صغيرة تسمى (التحفي في مذهب السلف) : " أن مذهب السلف من الصحابة عليهم السلام والتابعين وتابعيهم هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشيء منها ولا تشبيه ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل وأمسكوا عن القول والقييل وقالوا : قال الله هكذا ولا ندري بما سوى ذلك ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاورته فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظه التابعون عن الصحابة وحفظه من بعد التابعين عن التابعين وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة والطريقة لهم جميعا متفقة وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد وإنفاق الأموال في أنواع البر وطلب العلم النافع وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ولم يشغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته فكان الدين إذ ذاك صافيا عن كدر البدع خالصا عن شوب قدر المذهب فعلى هذا النمط كان الصحابة عليهم السلام والتابعون وتابعوهم وبهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتدوا وبأفعاله اقتدوا (١) .

وهكذا نجد أنه من الصعب إدراك حقيقة صفاته تعالى على النحو الذي ندرك به أمورنا المعتادة بل هذا مستحيل من أين للضيف العاجز أن يدرك كنهه القوي

القادر المقتدر إن النملة لا تعرف حقيقة الإنسان فحدود عالمها الذي تعيش فيه تقفها دون ذلك والطفل في المرحلة الأولى من عمره لا يعرف ما هي الرجولة ولا ما يصحبها من سعة عقل واستحكام إدراك بل الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادي الذي يعيش فيه فكيف يعرف ما وراءه من غيوب ؟ إذا قيل أن الله تعالى بسمع فليس ذاك بأذن كأذاننا أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا وإذا قيل أنه بنى السماء فليس على النحو المألوف من تكليف فعلة واستحضار أدوات والذي نوقن به ابتداءً أن صفات المحدثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله تعالى فهو سبحانه وتعالى غير مخلوقاته وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكليلة والعقول القاصرة فنحن نؤمن بكل ما أثبتته الله تعالى لنفسه أو أثبتته له رسول الله ﷺ من الأسماء والصفات لكننا نتبرأ من محدورين عظيمين هما :

التمثيل : أن يقول بقلبه أو لسانه صفات الله كصفات المخلوقين .

التكييف : أن يقول بقلبه أو لسانه كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا .

إنه لا يقاس الخالق بالمخلوق ولا الرب المالك بالملوك فهو سبحانه علي على خلقه بذاته وصفاته .

(وهو العلي العظيم) (١) .

(وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) (٢) .

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٣) .

(ولم يكن له كفوا أحد) (٤) .

(١) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٢) سورة الأنعام ١٨ .

(٣) سورة الشورى ١١ .

(٤) الإخلاص ٤ .

ويدخل في هذا المقام تنزيه الله تعالى عن كل نقص ومباعدته عن كل عيب
فالتوحيد الخالص يقتضي المسلم أن ينزه ربه عن كل ما يناقض ما وصف به نفسه أو
وصفه به رسوله ﷺ فينزهه عن الشريك والولد والزوجة والكفو والظهير والشفيع - بدون
إذنه - والولي من الذل .

كما أن التوحيد الخالص يقتضي المسلم أن ينزه ربه عن كل صفات النقص
التي نفاها الله عن نفسه فينزه ربه عن النوم والنعاس (الله لا إله إلا هو الحي القيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم) (١) .

وينزه ربه عن الإعياء والتعب (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض
ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) (٢) .
(أفعبينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) (٣) .

(ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من
لغوب) (٤) .

وينزه ربه عن العجز (وما كنت متخذ المضلين عضدا) (٥) .
(وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض) (٦) .

(١) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٢) سورة الأحقاف ٣٣ .

(٣) سورة ق ١٥ .

(٤) سورة ق ٣٨ .

(٥) سورة الكهف ٥١ .

(٦) سورة فاطر ٤٤ .

وينزه ربه عن انعبت (أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون
 فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) (١) .
 وينزه ربه عن الظلم : (وما ربك بظلام للعبيد) (٢) .
 وينزه ربه عن الغفلة : (فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) (٣) .
 وينزه ربه عن النسيان : (وما كان ربك نسيا) (٤) .
 (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) (٥) .
 وينزه ربه عن الموت : (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به
 بذنوب عباده خبيرا) (٦) .
 (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) (٧) .
 (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (٨) .
 انه سبحانه باق أبدا ليس جسما فيموت ولا مادة فيتحلل ويذوي انه الدائم الذي
 يصير إليه كل شيء ذو الوجود الخالد المتأبى على الفناء .
 فواجب المسلم أن ينزه ربه عن كل ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بذاته
 المقدسة أو نفاه عنه رسول الله ﷺ وأن ذلك النفي يتضمن إثباتا لكمال ضده فهو لا
 يلحقه نوم أو نعاس لكمال قيوميته ولا يلحقه تعب ولا إعياء لكمال قوته ولا يعجزه

(١) سورة المؤمنون ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) سورة فصلت ٤٦ .

(٣) سورة هود ١٢٣ .

(٤) سورة مريم ٦٤ .

(٥) سورة طه ٥٢ .

(٦) سورة الفرقان ٥٨ .

(٧) سورة القصص ٨٨ .

(٨) سورة الرحمن ٢٦ ، ٢٧ .

شئ لكمال علمه وقدرته ولا يظلم لكمال عدله وليس بغافل عن أعمال عباده لكمال رقابته وإحاطته وهكذا .

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أنه لا يجوز أن يطلق عليه تعالى اسماً ولا صفة توهم نقصاً ولو ورد ذلك نصاً^(١) كالماكر والمستهزئ والمخادع والناسي والمعاهد والزارع والرامي والباني والكائد ونحو ذلك فهذه الألفاظ لا يجوز أن يشتق له تعالى منها اسماً ويمتنع إطلاقها عليه مع ورود الشروع بها من باب الأدب مع الله تعالى ولا تطلق عليه في غير ما سيقّت فيه من الآيات^(٢) كقوله تعالى : "(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)"^(٣) .

وقوله تعالى : "(وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم)"^(٤) .

وقوله تعالى : "(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم)"^(٥) .

وقوله تعالى : "(نسوا الله فنسيهم)"^(٦) .

وقوله تعالى : "(والأرض فرشناها فنعم الماهدون)"^(٧) .

وقوله تعالى : "(أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)"^(٨) .

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٢٢٦ .

(٢) معارج القبول ج ١ ص ٧٢ بتصرف .

(٣) سورة آل عمران ٥٤ .

(٤) سورة البقرة ١٤ ، ١٥ .

(٥) سورة النساء ١٤٢ .

(٦) سورة التوبة ٦٧ .

(٧) سورة الذاريات ٤٨ .

(٨) سورة الواقعة ٦٤ .

وقوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي) (١) .

وقوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون) (٢) .

وقوله تعالى : (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) (٣) .

يقول سعد الدين التفتازاني : " فإن قيل قد وجدنا من الأوصاف ما يمتنع إطلاقها مع ورود الشرع بها كالمأكر والمستهزئ والمنزل والمنشئ والحارث والزارع والرامي قلنا : لا يكفي في صحة الإجراء على الإطلاق مجرد وقوعها في الكتاب والسنة بحسب اقتضاء المقام وسياق الكلام بل يجب أن لا يخلو من نوع تعظيم ورعاية أدب " (٤) .

ومما ينبغي أن يعلم أيضا أن من أسماء الله تعالى ما لا يطلق عليه ألا مقترنا بمقابله فإذا أطلق وحده أوهم نقصا تعالى الله عن ذلك من هذه الأسماء (القابض الباسط) (الخافض الرافع) (المعز المذل) (المنتقم العفو) (الضار النافع) فلا يطلق على الله تعالى : " القابض - الخافض - المذل - المنتقم - الضار " كلا على انفراده بل لابد من ارتدائها بمقابلاتها إذ لم تطلق في الوحي إلا كذلك .

(١) سورة الأنفال ١٧ .

(٢) سورة الذاريات ٤٧ .

(٣) سورة الطارق ١٥ ، ١٦ .

(٤) شرح المقاصد ج ٢ ص ١٢٧ .

(ب)

النهي عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الخالق والمخلوق

إن الإسلام لم يكتف بنفي المماثلة والمثابفة بين صفات الخالق والمخلوق بل نهى عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الله تعالى وبين أحد من خلقه حماية للتوحيد وسدا لذريعة المثابفة ففي مسند الإمام أحمد - وغيره - عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ : "ما شاء الله وشئت فقال له النبي ﷺ : "أجعلني لله عدلاً بل ما شاء الله وحده" وفي رواية : "أجعلني لله ندا بل ما شاء الله وحده" (١).

ولأبي داود بسند صحيح عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان) (٢) وذلك : لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه لكونها إنما وضعت - أي الواو - لطلق الجمع فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً وتسوية المخلوق بالخالق شرك إن كان في الأصغر فهو أصغر وإن كان في الأكبر فهو أكبر بخلاف المعطوف بثم فإن العطف بها يكون متراحياً عن المعطوف عليه بمهلة فلا يحذر لكونه صار تابعاً (٣) والله تعالى يقول : "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله" (٤).

كما نهى الإسلام عن الحلف بغير الله تعالى ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب

(١) المسند ج ٢ ص ٣٦٠ .

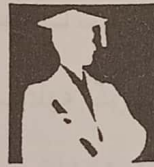
(٢) وأنظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٨٤، ٦٨٥ - عن ابن عباس .

(٣) انظر فتح المجيد ص ٤٩٢ ، ومعارج القبول ج ١ ص ٣٢٨ .

(٤) سورة الإنسان : الآية ٣٠ .

يحب بابيه فقال . "ألا إن الله يهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف
بالله أو ليصمت" . قال عمر : فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ ينهى
عنها ذاكرا ولا آثرا^(١) . معنى ذاكرا قائلها من قبل نفسي ولا آثرا أي حالفا عن
غيري^(٢) .

قال الإمام النووي : "قال العلماء الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله تعالى
أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به وحقيقة العظمة مختصة بالله تعالى فلا
يضاهي به غيره"^(٣) .



(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٥١ وصحيح مسلم ج ١ ص ٤ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) النووي على صحيح مسلم ج ١١ ص ١٠٥ .

المبحث الثاني

تحرير الأتباع والمرسل
عليهم السلام مما هم من

خصائصهم يستقيم

والله همتهم سبحانه

حمايتهم لئلا يحد

وسمهم في حقهم

المشاهدة أو المشاهدة

يسمى المحقق والخالق



إن الإسلام قد صرح أنه سبحانه قد تفرد بخصائص الربوبية والألوهية وليس
لنبي مرسل ولا ملك مقرب من هذه الخصائص شيء لأن اشتراكهم في هذه
الخصائص أو في بعضها يخل بالعقيدة فضلا عن عدم قدرتهم على شيء من ذلك كما
صرحوا بذلك .

والله تعالى قد بين ما يجب اعتقاده في حق الرسل عليهم السلام وأنه :
تصديق خبرهم وامتنال أمرهم واجتناب نهيمهم واتباعهم على شريعتهم ومحبتهم هم
واتباعهم وتوابع ذلك .

"أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" (١) .

(١) سورة النور : الآية ٥٤ .

"من يطع الرسول فقد أطاع الله" (١).

"ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" (٢).

"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" (٣).

"إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله" (٤).

"فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (٥).

"فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" (٦).

"واتبعوه لعلكم تهتدون" (٧).

"وإن تطيعوه تهتدوا" (٨).

وهذا هو الذي دعوا إليه لم يدع أحد منهم الربوبية أو الألوهية قال تعالى :
"ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون

(١) سورة النساء : الآية ٨٠ .

(٢) سورة الحشر : الآية ٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٢١ .

(٤) سورة الفتح : الآية ١٠ .

(٥) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٦) سورة النور : الآية ٦٣ .

(٧) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

(٨) سورة النور : الآية ٥٤ .

ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون" (١).

يقول ابن كثير في معنى هذه الآية الكريمة : أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله أي مع الله فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمُرسل فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" (٢).

وفي المسند أن عدي بن حاتم قال يا رسول الله ما عبدوهم قال : "بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم" فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين . فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق وبلغوهم الحق ...

ولا يأمركم بعبادة غير الله لا نبي مرسل ولا ملك مقرب "أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون" أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٨٠، ٧٩ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣١ .

فاعبدون" (١) وقال تعالى : "واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون" (٢) .

ويقول الله تعالى مخبرا وحاكيا بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح عيسى بن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا والله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير) (٣) .

فهو سبحانه قد أخبر عن قدرته على الأشياء وكونها تحت فهره وسلطانه وأنه لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وجميع من في الأرض فمن ذا الذي كان يمنعه منه ؟ أومن ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ؟ فجميع الموجودات ملكه وخلقته وهو القادر على ما يشاء لا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته (٤) .

ويقول سبحانه ردا على من زعم أن لله ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب أن الملائكة بنات الله :

(وقالوا أتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن أرتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) (٥) .

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

(٣) تفسير ابن كثير (مختصر) ج ١ ص ٢٩٥ .

(٤) سورة المائدة ١٧ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٩ .

أن بعض الناس استدرجهم الشيطان وأدخلهم في المهلكات شيئاً فشيئاً وأتاهم على ما يهوون إما بجفاء لا يبالي فعاودوهم ونابدوهم بالمحاربة وإما بغلوزين لهم هذا الغلو فيهم بالكذب والقول عليهم بالبهتان ورفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله عز وجل .

ولم يسلم من ذلك إلا أهل التوحيد الخالص الذين هداهم الله صراطه المستقيم فلم يقصروا عنه ولم يستبدلوا به غيره بل استمسكوا به واعتصموا .
(ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) .

وأشير فيما يلي إلى تفرده تعالى بخصائص الربوبية والألوهية حماية للتوحيد وسدا لذريعة المشاركة أو المشابهة بين الله تعالى وبين رسله فضلاً عن غيرهم بطريق الأولى والأخرى .

فمن ذلك : أن التوبة والإنابة والأوبة تكون له تعالى وحده :

فعن التوبة وكونها لله تعالى وحده :

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : "فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا" (١) .

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام : "ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه" (٢) .

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام : "واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود" (٣) .

(١) سورة نوح : الآية ١٠ .

(٢) سورة هود : الآية ٥٢ .

(٣) سورة هود : الآية ٩٠ .

وقال تعالى على لسان خاتم الأنبياء ﷺ : "أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ" (١) .

وأمره تعالى أَنْ يعلن :

"قل هوربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب" (٢) .

"نبئ عبادي إِنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ" (٣) .

"قل يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (٤) .

وفي المسند : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : "أَتَى بِأَسِيرٍ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : عَرَفَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ" (٥) .

فالتوبة لَا تكون إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ كَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ وَالنَّسَكِ فَهِيَ خَالصٌ حَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْرَفَ لِسِوَاهُ :

"وتوبوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (٦) .

"وهو الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ" (٧) .

وعن الإنابة وكونها لِلَّهِ تعالى وحده :

يقول سبحانه عن إبراهيم عليه السلام :

(١) سورة هود : الآيتان ٣٠، ٣١ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٣٠ .

(٣) سورة الحجر : الآيتان ٤٩، ٥٠ .

(٤) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

(٥) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٧٤ .

(٦) سورة النور : الآية ٣١ .

(٧) سورة الشورى : الآية ٢٥ .

"إن إبراهيم لحليم أواه منيب" (١).

"لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قون إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء رينا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير" (٢).

ويقول سبحانه على لسان شعيب عليه السلام : "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" (٣).

ويقول سبحانه عن داود عليه السلام : "وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأنااب فغفرنا له ذلك وأن له عندنا لزلفى وحسن مآب" (٤).

ويقول سبحانه عن سليمان عليه السلام : "ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب أغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب" (٥).

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله تعالى : "ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب" (٦).

(١) سورة هود : الآية ٧٥ .

(٢) سورة الممتحنة : الآية ٤ .

(٣) سورة هود : الآية ٨٨ .

(٤) سورة ص : الآيتان ٢٤، ٢٥ .

(٥) سورة ص : الآيتان ٣٤، ٣٥ .

(٦) سورة الرعد : الآيات ٢٧ : ٢٩ .

وبقوله تعالى : "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون" (١) .

ويقول سبحانه : "منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون" (٢) .

ويقول الله تعالى : "والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشري فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب" (٣) .

ويقول سبحانه : "وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب" (٤) .

وعن الأوبة :

يقول سبحانه عن أيوب عليه السلام :
(إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) (٥) .

ويقول سبحانه عن داود عليه السلام :

(١) سورة الزمر : الآيتان ٥٣، ٥٤ .

(٢) سورة الروم ٣١، ٣٤ .

(٣) سورة الزمر ١٧، ١٨ .

(٤) سورة الشورى ١٠ .

(٥) سورة ص ٤٤ .

(١) ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير

"اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب" (٢)

ويقول سبحانه عن سليمان عليه السلام :

"ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب" (٣)

فالتوبة والإنابة والأوبة عبادة لا تنبغي إلا لله عز وجل كالسجود والصيام فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه وعن التوبة والإنابة والأوبة يقول أبو علي الدقاق رحمه الله : "التوبة على ثلاثة أقسام : أولها التوبة وأوسطها الإنابة وآخرها الأوبة فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما .

فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة .

ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة .

ومن تاب مراعاة للأمر لا للرغبة في الثواب أورهبة من العقاب فهو صاحب

أوبة .

ويقال أيضا : التوبة صفة المؤمنين : "وتوبوا إلي جميعا أيها المؤمنون لعلكم

تفلحون" (٤)

والإنابة صفة الأولياء والمقربين قال تعالى : "وجاء بقلب منيب" (٥)

(١) سورة سبأ ١٠ .

(٢) سورة ص ١٩، ١٧ .

(٣) سورة ص ٣٠ .

(٤) سورة النور ٣١ .

(٥) سورة ق ٣٣ .

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين قال تعالى : "نعم العبد انه أواب" (١) .
ومن ذلك : إنه سبحانه جعل الإتيان لله والرسول وجعل التوكل والرغبة لله
تعالى وحده كما قال سبحانه : "ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله وقالوا حسبنا الله
سيؤتيهم الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون" (٢) .

وقال تعالى عن نوح وهود وصالح أنهم قالوا لأقوامهم :
"إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا
أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على
الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون" (٣) .
كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام : "إني توكلت على الله ربي وربكم
ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم" (٤) .

وقال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : "يا بني لا تدخلوا من باب واحد
وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه
توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون" (٥) .

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام أنه قال لقومه : "قد افترينا على
الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن

(١) سورة ص ٣٠ . القشيري : الرسالة ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

(٣) سورة إبراهيم : الآيتان ١٢، ١١ .

(٤) سورة هود : الآية ٥٦ .

(٥) سورة يوسف : الآية ٦٧ .

يَشَاءُ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ" (١).

وقال تعالى عن موسى عليه السلام : "وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين" (٢).

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "فإذا عزمْتَ فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" (٣).

"فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" (٤).

"وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه" (٥).

"وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده" (٦).

"وتوكل على العزيز الرحيم" (٧).

"فتوكل على الله إنك على الحق المبين" (٨).

"وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً" (٩).

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٩ .

(٢) سورة يونس : الآيات ٨٤ : ٨٦ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٤) سورة التوبة : الآية ١٢٩ .

(٥) سورة هود : الآية ١٢٣ .

(٦) سورة الفرقان : الآية ٥٨ .

(٧) سورة الشعراء : الآية ٢١٧ .

(٨) سورة النمل : الآية ٧٩ .

(٩) سورة الأحزاب : الآية ٣ .

يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" (١) .

وقال تعالى عن موسى عليه السلام : "وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين" (٢) .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "فإذا عزمْتَ فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" (٣) .

"فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" (٤) .

"والله يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه" (٥) .

"وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده" (٦) .

"وتوكل على العزيز الرحيم" (٧) .

"فتوكل على الله إنك على الحق المبين" (٨) .

"وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا" (٩) .

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٩ .

(٢) سورة يونس : الآيات ٨٤ : ٨٦ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٤) سورة التوبة : الآية ١٢٩ .

(٥) سورة هود : الآية ١٢٣ .

(٦) سورة الفرقان : الآية ٥٨ .

(٧) سورة الشعراء : الآية ٢١٧ .

(٨) سورة النمل : الآية ٧٩ .

(٩) سورة الأحزاب : الآية ٣ .

"قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا" (١) .

كما خاطبه بقوله تعالى : "فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب" (٢) .

أي اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل (٣) وحده .

ومن ذلك : إنه تعالى جعل الطاعة له عز وجل ولرسله أما العبادة والتقوى

والخوف والخشية والرغبة فله تعالى وحده .

فعن تفريده تعالى بالعبادة والتقوى وجعله الطاعة له سبحانه ولرسله يقول

تعالى عن نوح عليه السلام : "كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون" (٤) .

"إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون" (٥) .

وقال تعالى عن هود عليه السلام :

"كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون" (٦) .

(١) سورة الملك : الآية ٢٩ .

(٢) سورة الشرح : الآيتان ٨٤٧ .

(٣) ابن كثير مختصر ج ٣ ص ٦٥٣ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٠٥ : ١١٠ .

(٥) سورة نوح : الآيات ١ : ٣ .

(٦) سورة الشعراء : الآيات ١٢٣ : ١٣١ .

وقال تعالى عن صالح عليه السلام :

"كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون" (١) .

وقال تعالى عن لوط عليه السلام :

"كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون" (٢) .

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام :

"كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون" (٣) .

ويقول تعالى عن عيسى عليه السلام :

"ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكُم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم" (٤) .

ويقول الله تعالى عن خاتم الأنبياء ﷺ :

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٤١ : ١٥٠ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات ١٦٠ : ١٦٣ .

(٣) سورة الشعراء : الآيات ١٧٦ : ١٧٩ .

(٤) سورة الزخرف : الآيتان ٦٣ ، ٦٤ .

"يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله وإنرسل فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين" (١).

وعن الخوف والخشية والرغبة وكونها لله تعالى وحده :
يقول سبحانه :

"إنما نالكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين" (٢).

"أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه" (٣).

ويخبر تعالى أنه ابتعث نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون وأمره أن يعلن :
"هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى" (٤).

ويخاطب سبحانه نبيه ﷺ :

"وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه" (٥).

ويقول سبحانه ردا على من زعم أن له ولدا من الملائكة : "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين" (٦).

(١) سورة الأنفال : الآية ١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٥ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٣٦ .

(٤) سورة النازعات : الآيتان ١٨، ١٩ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٣٧ .

(٦) سورة الأنبياء : الآيات ٢٦ : ٢٩ .

ويخبر تعالى عن عمار المساجد أهل الله الذين لا يخافوا إلا من الله تعالى ولم يخشوا سواه :

"إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين" (١).

ويخبر تعالى أنه لا إله إلا هو المتفرد بالعبادة والخوف والخشية والرهبة والتقوى : "وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أغير الله تتقون" (٢).

كما يخبر تعالى عن نبيه زكريا عليه السلام حين طلب من الله تعالى أن يهبه ولدا يكون من بعده نبيا :

"وزكريا إذ نادى ربه ربي لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين" (٣).

ويخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ويقرر أن الطاعة له ولرسوله أما الخشية والتقوى فله تعالى وحده فيقول سبحانه :

"إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون" (٤).

(١) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٢) سورة النحل : الآيتان ٥١، ٥٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٨٩، ٩٠ .

(٤) سورة النور : الآيتان ٥١، ٥٢ .

وبعد : ففي هذه الآيات - وما في مثل معناها - أخبر تعالى أنه قد تفرد بالعبادة والتقوى والخوف^(١) والخشية والرغبة فهذه الأمور لا تنبغي إلا لله سبحانه وتعالى كما أخبر سبحانه أنه قد جعل الطاعة والانقياد له تعالى ولصفوة خلقه وهم الرسل الأطهار عليهم السلام ، لأن "من يطع الرسول فقد أطاع الله" "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله".

ومن ذلك : إفراده تعالى بالاستعانة والاستعاذة والاستغاثة .

أما عن الاستعانة :

فيقول سبحانه "إياك نعبد وإياك نستعين"^(٢) .

أي لا نعبد إلا إياك ولا نطلب العون إلا منك وهذا هو كمال الطاعة والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين فالأول تبرؤ من الشرك والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل .

وقال موسى عليه السلام لقومه بعد أن صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل : "استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين"^(٣) .

وقال تعالى على لسان نبيه يعقوب : "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون"^(٤) .

(١) الخوف الطبيعي وهو الخوف من عدو أو من حيوان مفترس ونحوه فهذا ليس بمذموم كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام "فخرج منها خائفا يترقب" .

(٢) سورة الفاتحة الآية ٥ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٢٨ .

(٤) سورة يوسف : الآية ١٨ .

وقال تعالى على لسان خاتم الأنبياء : "قال ربي احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون" (١) .

وأما الاستعاذة :

فيقول سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام : "رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم" (٢) .

ويقول تعالى على لسان موسى عليه السلام : "إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب" (٣) .

ويقول سبحانه مخاطبا نبيه ﷺ : "وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون" (٤) .

"وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم" (٥) .

فإن الله تعالى أمر رسوله أن يستعذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف فإذا استعاذ بالله والتجأ إليه كفه عنهم ورد كيدهم كما استعاذ الرسول ﷺ بصفة الرضا من صفت السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها فقال ﷺ : "أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك" فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقا وكونا فمنه السبب والمسبب وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاهما قوى التأثير وهو الذي

(١) سورة الأنبياء : الآية ١١٢ .

(٢) سورة هود : الآية ٤٧ .

(٣) سورة غافر : الآية ٢٧ .

(٤) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٨، ٩٧ .

(٥) سورة فصلت : الآية ٣٦ .

أوجدتها وأعدها ومددها وسلطها على ما شاء وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها .

فتأمل ما تحت قوله ﷻ "أعوذ بك منك" من محض التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره وتكميل التوكل عليه تعالى والاستعانة به وحده فهو سبحانه المستعاذ بمشيئته من مشيئته وهو المعيد من فعله بفعله (١) .

وكما أن الاستعانة بالله تعالى دأب الأنبياء والمرسلين فهي أيضا دأب المؤمنين الصالحين . قال تعالى على لسان امرأة عمران :

"واني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" (٢) .

وقال تعالى على لسان مريم :

"إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا" (٣) .

أما الاستعانة بغير الله تعالى فهي عادة أهل الجاهلية كما قال سبحانه :
"وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا" (٤)

يقول ابن كثير رحمه الله : "كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم "زادوهم رهقا" أي خوفا وإرهابا وذعرا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم . كما قال قتادة "فزادوهم رهقا" أي إنشا وزدادت الجن عليهم بذلك جرأة . وقال الثوري : "فزادوهم رهقا" أي ازدادت الجن عليهم جرأة وقال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي

(١) راجع ابن القيم — عدة الصابرين ص ٢٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٦ .

(٣) سورة مريم : الآية ١٨ .

(٤) سورة الجن : الآية ٦ .

من الجن أن أضر أنا فيه ومالي أو ولدي أو ماشيتي . قال قتادة : فإذا عاد بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك . وعن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون فذلك قول الله عز وجل : "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا" أي إثما . وقال أبو العالية : "رهقا" أي خوفاً . (١)

فيجب إفراده تعالى بالاستعاذة التي هي الالتجاء إليه سبحانه من شر كل ذي شر . والعبادة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب الخير وذلك كله من اختصاصه سبحانه وحده .

كما إنه سبحانه المتفرد بالاستغاثة التي هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" (٢) .

فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله : "ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين" (٣) .

أي له الملك والتصرف وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروى مرفوعاً : "اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليه يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله" (٤) .

(١) المختصر ج ٢ ص ٥٥٧ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٩ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٤) ابن كثير مختصر ج ٢ ، ص ٢٥ .

"وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَاثَمْتَ إِنَّ مِنَ الظَّالِمِينَ إِنْ يُمْسِكِ اللَّهُ بَضْرْفًا كَاشَفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (١).

"أَمَنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ" (٢).

"مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مَرْسَلٍ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (٣).

فهذا من جملة ما أخبر به سبحانه في كتابه من تفرد به بالملك والقهر والعطاء والمنع والضر والنفع دون كل ما سواه فيلزم من ذلك أن يكون هو سبحانه المدعو وحده عند الشدائد المرجو عند النوازل الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه والذي لا يكشف ضر المضررين سواه.

ولهذا أنكر الله عز وجل على من يدع أحدا من دونه ممن لا يملك دفع الشر وجلب الخير كقوله تعالى :

"قُلْ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهَدَىٰ أُنْتَقَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَأَمْرًا لِنَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" (٤).

(١) سورة يونس ١٠٥، ١٠٧.

(٢) سورة النمل ٦٢.

(٣) سورة فاطر ٢.

(٤) سورة الأنعام ٧١.

"قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا" (١).

"ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعو دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئنك مثل خبير" (٢).

"أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله أن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون" (٣).

"ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين" (٤).

وهكذا فإن اتخاذ شركاء لله في استجلاب الخير أو دفع الشر بسؤالهم والالتجاء إليهم بالرغبة والرغبة والتضرع وغير ذلك نقيض التوحيد الذي أمرنا به كما أنه نقيض ما أخبر به الله تعالى في كتابه العزيز من أنه عز وجل وحده المدعو عند الشدائد المرجو عند النوازل الذي لا يرغب الداعي ولا يخضع ولا يتذلل إلا له سبحانه

(١) سورة الإسراء ٥٦، ٥٧ .

(٢) سورة خاطر ١٣، ١٤ .

(٣) سورة الزمر ٣٦ : ٣٨ .

(٤) سورة الأحقاف ٦٠، ٦١ .

لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الذي خاطب نبيه ﷺ بقوله : "ليس لك من الأمر شيء" (١) .

وأمره أن يقول : "قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين" (٢) .

وروى البخاري - وغيره - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ حين أنزل الله "وأندر عشيرتك الأقربين" قال : يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد سليمان ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا" (٣) .

وفي الحديث : إنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال ﷺ : إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله (٤) .

فالاستغاثة بمخلوق مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى لا تجوز لأنها دعاء والدعاء عبادة بل مخ العبادة وغير الله تعالى لا يستحق شرعا ولا عقلا أن يعبد .

والاستغاثة بالمخلوق تجوز في الأسباب الظاهرة العادية إن كان ذلك فيما يقدر عليه نحو الحيلولة بينه وبين عدوه ودفع لص أو حيوان مفترس ونحو ذلك مما يجري فيه التعاون والتعااض بين الناس فلا ريب في جوازه إذا كان ذلك مع اعتقاد أن لا مغيب ولا معين على الإطلاق إلا الله عز وجل وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره

(١) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٢) سورة الأحقاف ٩ .

(٣) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٧١ .

(٤) معارج القبول ج ١ ص ٣٥٥ وفتح المجيد ص ١٧٤ والحديث رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت .

فالحقيقة له سبحانه ومن هذا القبيل قوله تعالى حكاية عن الإسرائيليين الذي استغاث موسى عليه السلام : "فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه" (١) .

أما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يستغاث فيه إلا به كالأستغاثاة بالقوة والتأثير كالهداية وإنزال المطر ونحوه أو في الأمور المعنوية من الشدائد كغفران الذنوب وشفاء المريض وطلب الرزق ونحوه فمن خصائصه سبحانه لا يطلب فيها غيره .
ومن ذلك : أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه .

قال تعالى عن آدم عليه السلام مبينا أن الهداية منه سبحانه : "وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" (٢) .

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم" (٣) .

وقال سبحانه على لسانه عليه السلام : "الذي خلقني فهو يهدين" (٤) .
"إني ذاهب إلى ربي سيهدين" (٥) .

وقال تعالى عنه أيضا : "وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون" (٦) .

(١) سورة القصص ١٥ .

(٢) سورة طه ١٢١، ١٢٢ .

(٣) سورة النحل ١٢٠، ١٢١ .

(٤) سورة الشعراء ٧٨ .

(٥) سورة الصافات ٩٩ .

(٦) سورة الزخرف ٢٦ : ٢٨ .

وبعد ذكر عدد من الأنبياء بقول سبحانه : " أولئك الذين أنعم الله عليهم من
النبیین من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدینا
واجتبینا إذا تتلى عليهم آیات الرحمن خروا سجدا وبكيا" (١) .

قال السدي وابن جریر رحمهما الله : فالذي عنى به من ذرية آدم (إدريس)
والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح (إبراهيم) والذي عنى به من ذرية إبراهيم
(إسحاق ويعقوب وإسماعيل) والذي عنى به من ذرية إسرائيل (موسى وهارون
وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم) (٢) .

ويقول سبحانه :

" وتلك حجتنا آتیناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك
حكيم علیم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدینا ونوحا هدینا من قبل ومن ذریته
داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى
وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل وإيسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على
العالمين ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ذلك
هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط ما كانوا يعملون أولئك
الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين" (٣) .
ويقول سبحانه :

" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي
من يشاء وهو العزيز الحكيم" (٤) .

(١) سورة مريم ٥٨

(٢) ابن كثير (مختصر ج ٢ ص ٤٥٧) .

(٣) الأنعام ٨٣ : ٩٠ .

(٤) سورة إبراهيم ٤ .

ويقول سبحانه :

"ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبناهم

ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم **محل**
الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين" (١).

ويقول سبحانه على لسان موسى عليه السلام :

"ربنا الذي أعطى كل خلقه ثم هدى" (٢).

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله :

"ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء" (٣).

"قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما
كان من المشركين" (٤).

"قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب" (٥).

"إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين" (٦).
"من يهدي الله فهو المهتد ومن يضل فلن نجد له ولياً مرشداً" (٧).

"وما أنت بهاد العمي إن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم
مسلمون" (٨).

(١) سورة الأنبياء ٧٣، ٧١ .

(٢) سورة طه ٥٠ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٢ .

(٤) سورة الأنعام ١٦١ .

(٥) سورة الرعد ٢٧ .

(٦) سورة النحل ٣٧ .

(٧) سورة الكهف ١٧ .

(٨) سورة النمل ٨١ .

"إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين" (١).
فهذه الآيات تصرح بوضوح بأن من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد
خاب وخسر وضل لا محالة فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا جاء في
حديث ابن مسعود : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله
من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي
له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (٢).

ومن ذلك : أن الطبع والختم والغل والسد والغشاوة والحجاب والأكنة والوقر
والصمم والبكم والعمى والقفل والزان والصدأ والمنع أو الشد على القلوب والصرف
والإغفال وتقليب الأفئدة وإزاحة القلوب والخذلان والاعركاس والتثبيط والتزيين
وقسوة القلب وتضييق الصدر كل هذه الأمور مجعولة لله تعالى وحده .

فقد أشتمل كتاب الله تعالى على آيات دالة على تفرده سبحانه بهذه الأمور
التي عاقب بها الكفار وأهل الضلال وعلى بطلان من قال : أن الله سبحانه أقدر
الكافر والشیطان على الطبع والختم ... الخ . فإنه سبحانه لم يقدره إلا على التزيين
والوسوسة والدعوة إلى الكفر ولم يقدره على خلق ذلك في قلب العبد وهو أقل من ذلك
وأعجز وقد قال النبي ﷺ : بعثت داعيا ومبليا وليس إلى من الهداية شيء وخلق إبليس
مزيئا وليس إليه من الضلالة شيء "فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب
التي إذا فعلها ختم الله على سمعه وقلبه كما يدعو إلى الأسباب التي إذا فعلها عاقبه
الله بالنار فعقابه بالنار كعقابه بالطبع والختم وأسباب العقاب فعله - كما سيأتي -
وتزيينها وتحسينها فعل الشيطان .

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) ابن كثير (مختصر) ج ٢، ص ٦٨ .

وحول نسبة هذه الأمور إلى الله تعالى يقول ابن القيم رحمه الله :

"... إن أفعالهم القبيحة لا تنسب إلى الله تعالى وإنما هي منسوبة إليهم

والمنسوب إليه سبحانه أفعاله الحسنة الجميلة المتضمنة للغابات المحمودية والحكم المطلوبة والختم والطبع والقفل والإضلال أفعال حسنة من الله وضعها في أليق المواضع بها إذ لا يليق بذلك المحل الخبيث غيرها والشرك والكفر والمعاصي والظلم أفعالهم القبيحة التي لا تنسب إلى الله تعالى فعلا وإن نسبت إليه خلقا فخلقها غيرها والخلق غير المخلوق والفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي والقدر غير المقدور..." (١)

فمن كمال عدله سبحانه في أعدائه جعله الطبع والختم والغل... الخ عقوبة لهم وجزاء على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودا عليه فهو حسن منه وأقبح شيء منهم وهو عدل منه وحكمة وظلم منهم وسفه.

ونذكر فيما يلي هذه العقوبات مفصلة ومواقعها في القرآن الكريم :

أما عن الطبع :

فيقول سبحانه "فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا" (٢).

فأخبر سبحانه أن الطبع إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع فهم اكتسبوا أعمالا عاقبهم الله تعالى عليها بالطبع على القلوب وقال سبحانه : "ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا

(١) شفاء العليل ص ١٥٥ .

(٢) سورة النساء ١٥٥ .

للذين أتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وأتبعوا
أهواءهم" (١)

وأما عن الختم والغل والسد والغشاوة :

فيقول سبحانه : "إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا
يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب
عظيم" (٢)

"قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله
يأتيكم به" (٣)

"لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون أنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي
إلى الأنقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم
فهم لا يبصرون" (٤)

"أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه
وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون" (٥)

ففي هذه الآيات يخبر سبحانه عن بعض الموانع التي منع بها الكافرين من
الإيمان عقوبة لهم فمن ذلك الختم والطبع وهما يشتركان في ذكر ويفترقان في معنى
آخر وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق كما أنه سبحانه
مثل بعض هذه العقوبات بأحسن تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال

(١) سورة محمد ١٦ .

(٢) سورة البقرة ٧٠٦ .

(٣) سورة الأنعام ٤٦ .

(٤) سورة يس ٩٧ .

(٥) سورة الجاثية ٢٣ .

العريضة الواصلة إلى الأنقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً. لقد حيل بينهم وبين الإيمان ومواقع الهدى عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول ﷺ (١).

وأما عن الحجاب والأكنة والوقر:

فيقول سبحانه: "وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً" (٢).

"ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين" (٣).

فأخبر سبحانه أن ذلك جعله فالحجاب يمنع رؤية الحق والأكنة تمنع من فهمه والوقر يمنع من سماعه.

وقد أقرروا على أنفسهم بذلك فقالوا: "قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقروا من بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون" (٤).

فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة وغطاء الأذن وهو الوقر وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنى: لا نفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك.

(١) انظر ابن القيم شفاء العليل ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) سورة الإسراء ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة الأنعام ٢٥.

(٤) سورة فصلت ٥.

وعن الصمم والبكم والعمى والقفل :

فيقول سبحانه : "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها" (١) .

وقال تعالى : "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون" (٢) .

أي صمم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمي عن رؤية طريقة ومسلكه (٣) . والبكم نوعان بكم القلب وبكم اللسان وأشدهما بكم القلب كما أن عماء وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ولا تنطق به ألسنتهم والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : من سمعه وبصره وقلبه وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة فسد السمع بالصمم والبصر بالعمى والقلب بالبكم ونظيره قوله تعالى : "لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون" (٤) .

وقد جمع سبحانه بين الثلاثة في قوله : "وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله" (٥) .

(١) سورة محمد ٢٢، ٢٤ .

(٢) سورة البقرة ١٧١ .

(٣) ابن كثير مختصر ج ١، ص ٥٠ .

(٤) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٥) سورة الأحقاف ٣٦ .

وعلى قلوب هؤلاء أقفال "أم على قلوب أقفالها" وكأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن .

وأما عن الران :

فيقول سبحانه "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" (١) .

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم فكان سبب الران منهم وهو خلق الله تعالى فيهم فهو خالق السبب ومسببه لكن السبب باختيار العبد والمسبب خارج عن قدرته واختياره .

والرين والران : أن يسود القلب من الذنوب وهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين فالأقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب . يقول ابن كثير في معنى الآية الكريمة "أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا أن هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ولهذا قال تعالى : "ما كانوا يكسبون" وقد روي الترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هونزع وأستغفرتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي قال الله تعالى : "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" وقال الحسن البصري ومجاهد هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيعمى ويموت (٢) .

(١) سورة المطففين ١٤ .

(٢) مختصر ابن كثير ج ٣ ص ٦١٥ ، وانظر ابن القيم شفاء العليل ص ١٦٤ .

وأما عن الصد والمنع والشد على القلب :

فيقول سبحانه : " وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل " (١) .

"وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون " (٢) . فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع .

وهذا الصد والمنع والشد على القلب من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودا عليه فهو حسن منه وأقبح شئ منهم فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفه (٣) .

وأما عن الصرف :

فيقول سبحانه : " وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون " (٤) .

فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلا له فالمحل غير صالح ولا قابل فإن صلاحية المحل بشيئين : حسن فهم وحسن قصد وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة وقد صرح سبحانه بهذا في قوله تعالى : " ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون " (٥) .

(١) سورة غافر ٣٧ .

(٢) سورة يونس ٨٨، ٨٩ .

(٣) انظر ابن القيم شفاء العليل ص ١٦٨ .

(٤) سورة التوبة ١٢٧ .

(٥) سورة الأنفال .

فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم فلم يسمعهم سماع أفهام ينتفعون وإن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجته فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم . ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص ، وهو الكبر والتولي والإعراض فالأول مانع من الفهم والثاني مانع من الانقياد والإذعان فأفهام سيئة وقصود رديئة وهذه نسخة الضلال وعلم الشفاء كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح (١) .

وأما عن الإغفال :

فيقول سبحانه : "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وأتبع هواه وكان أمره فرطا" (٢) فالغفلة وصفه الإغفال فعل الله تعالى فيه .

وأما عن تقليب الأفئدة :

فقال تعالى : "ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم بعمهون" (٣) .

كان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم لأنهم رأوها عيانا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه وهذا كقوله تعالى : "وأعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون" (٤) .

(١) ابن القيم شفاء العليل ص ١٦٨، ١٦٩ .

(٢) سورة الكهف ٢٨ .

(٣) سورة

(٤) سورة الأنفال ٢٤ .

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية فعن أنس رضي الله عنه قال قال كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال فقلت يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها كيف يشاء (١) .

وأما عن إزاعة القلوب :

فيقول سبحانه : " وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين " (٢) .
وقال عن عباده المؤمنين أنهم سألوه : " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا " (٣) .
والزغ يوصف به القلب والبصر كما قال تعالى : " وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر " (٤) .

فأله تعالى قد جازاهم على زغ قلوبهم عن الهدى إزاعة غير الزغ الأول وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه .

وأما الخذلان :

فقال تعالى : " إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون " (٥) .

وأصل الخذلان : الترك والتخلية . والخذلان أن يخلي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها والتوفيق ضده أن لا يدعه ونفسه ولا يكله إليها بل يصنع له

(١) رواية الترمذي وأحمد ابن كثير ج ٢، ص ٩٥ .

(٢) سورة الصف ٥ .

(٣) سورة آل عمران ٨ .

(٤) سورة الأحزاب ١٠ .

(٥) سورة آل عمران ١٦٠ .

ويلطف به ويعينه ويدفع عنه ويكلأه كالأمة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه فمن
خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كل الهلاك ولهذا كان من دعائه ﷺ : "يا حي يا قيوم يا
بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح
لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك".

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه وإن
خذله وأعرض عنه افتقرسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاه (١).

وأما عن الإركاس :

فيقول سبحانه : "فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا
أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا" (٢).

فإن الله تعالى أخبر عن حكمه وقضائه فيهم وعدله وأن إركاسه لهم كان بسبب
عصيانهم ومخالفتهم الرسول وإتباعهم الباطل.

وأما عن التثبيط وبيان حكمته تعالى فيه :

فيقول سبحانه : إنما يستئذّنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت
قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله إنبعاثهم
فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا
خلالكم يبعثونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين" (٣).

وأما عن التزيين :

فقال سبحانه : "وكذلك زيننا لكل أمة عملهم" (٤).

(١) ابن القيم شفاء العليل ص ١٧٣، ١٧٤ .

(٢) سورة النساء ٨٨ .

(٣) سورة التوبة ٤٥، ٤٧ .

(٤) سورة الأنعام ١٠٨ .

وقال سبحانه : "أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء" (١) .

وقال سبحانه : "وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون" (٢) .

ففي هاتين الآيتين. أضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقا ومشينة وحذف فاعله تارة ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة .

وهذا التزيين منه سبحانه حسن إذ هو ابتلاء واختبار بعيد ليتميز المطيع منهم من العاصي والمؤمن من الكافر كما قال تعالى : "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا" (٣) .

وهو من الشيطان قبيح وأيضا فتزيينه سبحانه للعبد عمله الشيء عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثارسى العمل على حسنه فإنه يعرفه سبحانه السيئ من المحسن فإذا أثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زينه الله له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحا وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسنا عقوبة له فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة الله عليه فإذا تمادى في غيه وظلمه ذهب ذلك النور فلم يرى قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول فتزيين الرب تعالى عدل وعقوبته حكمة وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو السبب الخارج عن العبد والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه (٤) .

(١) سورة فاطر ٨ .

(٢) سورة الأنعام ٤٣ .

(٣) سورة الكهف ٧ .

(٤) ابن القيم شفاء العليل ١٧٩ .

وأما جعله سبحانه القلب قاسيا :

فقال سبحانه : "فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن موضعه ونسوا حظا مما ذكروا به" (١) .

فإن الله تعالى جعل للقسوة آثارا منها : تحريف الكلم عن مواضعه وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب ومنها : نسيان ما ذكروا به وهو ترك ما أمروا به علما وعملا .

وأما تضيق الصدر وجعله حرجا لا يقبل الإيمان :

فقال تعالى : "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء" (٢) .

وهذا من آيات قدرة الرب تعالى فإذا أراد الله تعالى هداية عبد وسع صدره وشرحه فدخلت فيه وسكنته وإذا أراد الله تعالى ضلاله ضيق صدره وأحرجه فلم يجد محلا يدخل فيه فيعدل عنه ولا يساكنه . وسئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" . قالوا كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : "نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح" قالوا فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت" (٣) .

وقوله تعالى : "ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا . . ." وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفذ فيه وقد سأل عمر بن

(١) سورة المائدة ١٣ .

(٢) سورة الأنعام ١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير مختصر ج ١ ص ٦١٧ .

الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير (١).

وبعد : فهذه الآيات تتضمن توحيد الله تعالى وتصرفه في خلقه بعدله وإحسانه فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه يقول الحق ويفعل العدل "والله يقول الحق وهو يهدي السبيل" (٢) فهو سبحانه قد أخبر عن الموانع التي منع بها أهل الكفر والخسران من الإيمان كالطبع والختم . . . عقوبة لهم جزاء على كفرهم وجرائمهم وإعراضهم وغفلتهم وإيثار شهواتهم على الحق والهدى ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم فالآيات التي ذكرناها إنما هي في حق أقوام مخصوصين من الكفار فعل الله بهم ذلك عقوبة لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده فيهديه بعد ضلاله ويعلمه بعد جهله ويرشده بعد غيه ويفتح قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده وذلك بعد أن يتخلى العبد عن الأسباب التي من أجلها استحق العقاب العادل من الله تعالى . والقرآن الكريم من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم . . . الخ لم يفعلها الله تعالى بعبده من أول وهلة حين أمره

(١) المرجع السابق - ص ٦١٧ .

(٢) سورة الأحزاب

بالإيمان أو بينه له وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البين والإرشاد وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والجحود والعناد فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك والإعراض، والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختياراً فلما تكرّر منهم صار طبيعة وسجية .

إذن الكفار وأهل الخسران دائرون بين عدله سبحانه وحجته عليهم فممكنهم وفتح لهم الباب ونهج لهم الطريق وهياً لهم الأسباب فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ودعاهم على السنة رسله وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الخسران وأسباب الفلاح وجعل لهم أسماعاً وأبصاراً فآثروا الهوى على التقوى واستحبوا العمى على الهدى وقالوا معصيتك آثر عندنا من طاعتك والشرك أحب إلينا من توحيدك وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم وانصرفت عن طاعته ومحبته فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً فسده عليهم اضطراراً فحلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوه ومكنهم فيما ارتضوه وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون فلا أقبح من فعلهم ولا أحسن من فعله (١) .

والمقصود من هذه المسألة بيان أن الله تعالى وحده المتفرد بجعل الطبع والختم... الخ عقوبة للكفار وذلك عدل منه فيهم ولا يقدر أحد على فعل شيء من ذلك يقول الشهرستاني : "... التوفيق والخذلان والشرح والطبع والفتح والختم والهداية والضلال ينتسب إلى الله تعالى بشرط أن يكون أحق الاسمين به أحسن الاسمين

(١) راجع ابن القيم شفاء العليل من ص ١٤٩ - إلى ص ١٨٨ .

"ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها" (١) وأولى الفعلين بحكمه وتقديره أولى الفعلين وجودا وأجدرهما حصولا "بيدك الخير إنك على كل شيء قدير" (٢) اللهم من أحسن فبفضلك يفوز ومن أساء فبخطيئته يهلك لا المحسن استغنى عن معونتك ولا المسيء استبد بأمر خرج به عن قدرتك (٣).

ومن ذلك : أنه تعالى جعل الرزق بيده عز وجل وحده :

قال سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام : "والذي هو يطعمني ويسقي" (٤).

وقال تعالى عنه : "وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلى البلاغ المبين" (٥).

ويقول سبحانه عن موسى عليه السلام وقومه : "وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (٦).

(١) سورة الأعراف ١٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ٢٦ .

(٣) نهاية الإقدام ص ٤١٥ .

(٤) سورة الشعراء ٧٩ .

(٥) سورة العنكبوت ١٦ : ١٨ .

(٦) سورة البقرة ٦٠ .

ويقول سبحانه عن عيسى عليه السلام : "قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عبداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين" (١).

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى" (٢).

"قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" (٣).

كما أخبر سبحانه أنه وحده المتكفل بأرزاق المخلوقات في العديد من الآيات كقوله تعالى :

"وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين" (٤).

"ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون" (٥).

"وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون" (٦).

(١) سورة المائدة ١١٤ .

(٢) سورة طه ١٣٢ .

(٣) سورة سبأ ٢٤ .

(٤) سورة هود ٦ .

(٥) سورة النحل ٧٣ .

(٦) سورة القصص ٥٧ .

"وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم" (١).

"الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركاءكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون" (٢).

"يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون" (٣).

"وفي السماء رزقكم وما توعدون فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" (٤).

"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" (٥).

فهذه الآيات قد بينت أن رسل الله عليهم السلام قد دعوا إلى طلب الرزق من الله تعالى وحده لا شريك له وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم التي لا مسدى لها غيره كما بينت أنه تعالى وحده المنعم المتفضل الخالق الرزاق ولا يقدر أحد على فعل شيء من ذلك بل سبحانه وتعالى وحده هو المستقبل بالخلق والرزق.

ومن ذلك : إن المرض والشفاء بيده تعالى وحده :

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : "وإذا مرضت فهو يشفين" (٦).

(١) سورة العنكبوت ٦٠ .

(٢) سورة الروم ٤٠ .

(٣) سورة فاطر ٣ .

(٤) سورة النازعات ٢٢، ٢٣ .

(٥) سورة النازعات ٥٦ : ٥٨ .

(٦) سورة الشعراء ٨٠ .

أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه . ونلاحظ أن إبراهيم عليه السلام أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال الجن : "وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد ربهم بهم رشدا" (١) .

وقال تعالى عن أيوب عليه السلام : "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين" (٢) .

وقال عنه أيضا : "وأذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب" (٣) .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا فسلب جميع ذلك . . . فلما طال المطال واشتد الحال وانتهى القدر وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ففعل فأنبع الله تعالى عينا وأمره أن يغتسل منها فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى ثم أمره فضرب الأرض في مكان

(١) سورة الجن ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء ٨٤، ٨٣ .

(٣) سورة ص ٤١ : ٤٤ .

آخر فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها فذهب جميع ما كان في بطنه من
السوء وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا^(١) بحول الله تعالى وقوته .

ويقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام : "وأبرئ الأكمه والأبرص
وأوحى الموتى بإذن الله"^(٢) .

وقال تعالى عنه : "وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني"^(٣) .

فشفاء الأكمه (الأعمى) والأبرص من الأمور التي لا يقدر عليها إلى الله تعالى
وحده ولذلك نلاحظ أن المسيح عليه السلام حين يعرض معجزاته - التي تؤكد أنه
مرسل من ربه وأنه صادق فيما يبلغه عنه - لبني إسرائيل يؤكد ويكرر لفظ (بإذن
الله) كما أن الله تعالى عندما ذكر ما امتن به عليه من المعجزات الباهرات يؤكد
بذكر الإذن له في ذلك (بإذني) لرفع التوهم ولبيان أن ذلك إنما تم بإذن الله وقدرته
ومشيئته حيث لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول :

"اللهم رب الناس أذهب الباس اشفه وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء

لا يغادر سقما" وفي رواية "امسح الباس رب الناس بيدك الشفاء لا كاشف له إلا
أنت"^(٤) .

ومن ذلك : أن الموت والحياة بيد الله تعالى فهو وحده الحي المميت .

(١) ابن كثير (مختصر) ج ٣ ص ٢٠٤، ٢٠٥ .

(٢) سورة آل عمران ٤٩ .

(٣) سورة المائدة ١١٠ .

(٤) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٧ .

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : "إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت" (١).

وقال تعالى على لسانه أيضا : "الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحييني والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين" (٢).

أي أن الله تعالى وحده هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو وحده الخالق الرازق بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية . وإذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه وهو وحده الذي يحي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ولا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو عز وجل فإنه سبحانه وحده الفعال لما يريد (٣).

وقال تعالى عن المسيح عليه السلام :

"ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل أنني قد جئتكم بآية من ربكم أنني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم" (٤).

(١) سورة البقرة ٢٥٨ .

(٢) الشعراء ٧٨ : ٨٢ .

(٣) انظر ابن كثير (مختصر) ج ٢ ص ٦٥٠ .

(٤) سورة آل عمران ٤٩ : ٥١ .

كما قال تعالى عنه : "إذ قال الله يا عيسى بن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإن علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإن تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإن تخرج الموتى بإذني" (١).

فعيسى عليه السلام كان يدعو الموتى فيقومون من قبورهم بإذن الله تعالى وقدرته وإرادته ومشيئته لأن هذه الآية العجيبة من الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله فتصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه فينقلب طيرا ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس وإبراء الأكمه الذي لا يعرف الطب حتى اليوم كيف يرد إليه بصره وإبراء الأبرص الذي يعجز الطب حتى الآن عن إبرائه وإحياء الميت الذي يعجز الخلق كلهم على إحيائه كل هذه الآيات مما لا سبيل لأحد إليها إلا أن يكون مؤيدا من الذي أرسله سبحانه وتعالى .

لذلك تكرر على لسان المسيح كلمة "أني قد جئتكم بآية من ربيكم" ولفظ : "بإذن الله" وحين ذكر الله ما امتن به على المسيح من المعجزات يؤكد بذكر الإذن له في ذلك "بإذني" حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الآيات من قدرة المسيح فمن أين للمسيح قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص أو على بعث من هوفي قبره رهين إلى يوم التناد إلا إذا كان الله تعالى هو الذي أقدره على ذلك .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون" (٢).

(١) سورة المائدة ١١٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٨ .

فقلوه : "الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت" صفة الله في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم (١) .

وقوله تعالى : "الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركاءكم من يفعل من ذالك من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون" (٢) .

أي أنه سبحانه وتعالى وحده هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة .
وقوله تعالى : "قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (٣) .

وقوله تعالى : "إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير" (٤) .

وقوله تعالى : "وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو اضحك وأبكي وأنه هو أمات وأحيا" (٥) .

فالموت والحياة من خصائصه تعالى لا يشاركه فيها أحد من الخلق بل سبحانه المتفرد بذلك .

ومن ذلك : إفراده تعالى بالحكم .

(١) ابن كثير (مختصر) ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) سورة الروم ٤٠ .

(٣) سورة الجاثية ٢٦ .

(٤) سورة ق ٤٣ .

(٥) سورة النجم ٤٢ : ٤٤ .

قال تعالى على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام : "يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون" (١) .

وقال سبحانه على لسان نبي الله يوسف عليه السلام : "إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (٢) .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون" (٣) .

"ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون" (٤) .

ووصف سبحانه حكمه بأوصاف متعددة :

فقال تعالى على لسان نوح عليه السلام : "ربي إن أبنائي من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين" (٥) .

وقال على لسان شعيب عليه السلام : "فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين" (٦) .

(١) سورة يوسف ٦٧ .

(٢) سورة يوسف ٤٠ .

(٣) سورة القصص ٧٠ .

(٤) سورة القصص ٨٨ .

(٥) سورة هود ٤٥ .

(٦) سورة الأعراف ٨٧ .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله
حكما لقوم يوقنون" (١) .

"قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا
لله يقص الحق وهو خير الفاصلين" (٢) .

"والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب" (٣) .

"له غيب السماوات والأرض أبصر به وسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك
في حكمه أحدا" (٤) .

"أليس الله بأحكم الحاكمين" (٥) . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

وأمر سبحانه رسله أن يحكموا بين الناس بما في الكتب المنزلة :
قال تعالى :

"كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم
الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه" (٦) .

ويخاطب نبي الله داود عليه السلام بقوله : "يا داود إنا جعلناك خليفة في
الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" (٧) .

(١) سورة المائدة ٥٠ .

(٢) سورة الأنعام ٥٧ .

(٣) سورة الرعد ٤١ .

(٤) سورة الكهف ٢٦ .

(٥) سورة التين ٨ .

(٦) سورة البقرة ٢١٣ .

(٧) سورة ص ٢٦ .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما" (١) .

"وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون" (٢) .

فهذه النصوص صريحة في أنه تعالى المتفرد بالحكم ليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس وأن حكمه موصوف بأنه أحكم الحاكمين وخير الحاكمين وأحسن الحاكمين وأعدل الحاكمين وخير الفاضلين ولا معقب لحكمه ولا يشرك في حكمه أحد والذي يحكم من الأنبياء والرسل إنما يحكم بأمره وبالحق المنزل من عنده ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله .

وينكر سبحانه على الناس الذين يخرجون عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا سند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم فمن فعل ذلك فهو من الخاسرين الظالمين حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير (٣) .

(١) سورة النساء ١٠٥ .

(٢) سورة المائدة ٤٩، ٥٠ .

(٣) ابن كثير (مختصر) ج ١ ص ٥٢٥ بتصرف .

ومن ذلك : أنه سبحانه أخبر على لسان رسله عليهم السلام أنهم لا قدرة لهم على التصرف في خزائن الله وأنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه وأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعا ولا ضرا كما أمروا أن يردوا المشيئة إلى الله تعالى في كل الأمور فإنه سبحانه الفعال لما يريد الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

"ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين قالوا يا نوح قد جادلتنا فكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولن ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم هو ربكم وإلىٰه ترجعون" (١) .

ويقول تعالى عن عيسى عليه السلام :

"وإِذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبد الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" (٢) .

وأمر نبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه :

(١) سورة هود ٣١ : ٣٤ .

(٢) سورة المائدة ١١٦ : ١١٨ .

"قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلي" (١).

"قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون" (٢).

وحين قال الكفرة المكذبون المعاندون لرسول الله ﷺ (لولا أنزل عليه آية من ربه) أرشد نبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوه (فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنني معكم من المنتظرين) (٣).

ويرشد نبيه ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب يقول سبحانه :

"ولا تقولن لشيء إنني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله وأذكرك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينني ربي لأقرب من هذا رشدا" (٤).

وأمر رسوله ﷺ أن يقول معلما لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله سبحانه :

"قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله" (٥).

"قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيراً" (٦).

(١) سورة الأنعام ٥٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٨٨ .

(٣) سورة يونس ٢٠ .

(٤) سورة الكهف ٢٣، ٢٤ .

(٥) سورة النمل ٦٥ .

(٦) سورة الفتح ١١ .

"قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا" (١).

كما قال تعالى : "وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء" (٢).

ففي هذه الآيات - وما في مثل معناها - يأمر الله تعالى رسله أن يعلنوا في صراحة عن كمال قدرته سبحانه وأن خزائن الله لا قدرة لهم على التصرف فيها وأنهم لا يقدرّون على دفع ضرر أو جرّ نفع لأنفسهم أو لغيرهم وأن الغيب من اختصاصه تعالى وحده فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء .

ومن ذلك : أن أمر (الروح) مما استأثر به تعالى ولا اطلاع لبشر على كنهه قال تعالى مخاطبا نبيه محمد ﷺ :

"ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (٣).

أي أن الروح من شأنه ومما استأثر بعلمه تعالى ولم يطلع عليه أحد من الخلق كما أنه لم يطلع الخلق إلا على القليل من علمه تعالى كما في قصة موسى عليه السلام والخضر رضي الله عنه حيث أن الخضر قال يا موسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق

(١) سورة الجن ٢١ : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٣) سورة الإسراء ٨٥ .

في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر وكان موسى عليه السلام قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به فمن ثم أمر موسى أن يأتي الخضر الذي خصه الله تعالى بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر^(١). وصدق الله تعالى حيث قال : "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا"^(٢).

وقال سبحانه : "ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم"^(٣).

وحول سؤال الرسول ﷺ عن (الروح) روي البخاري عن عبد الله ابن مسعود قال : بينما أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح فقال : مارا بكم إليه وقال بعضهم لا يستقبلكم بشيء تكرهونه فقالوا سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئا فعلمت أنه يوحى إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال : "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"^(٤).

ومن ذلك : أن الساعة غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحد من خلقه بما فيهم الأنبياء والرسل والملائكة عليهم السلام :

(١) انظر ابن كثير ج ٢ ص ٣٩٨ وص ٤٢٨، ٤٢٩ (مختصر) بتصرف .

(٢) سورة الكهف ١٠٩ .

(٣) سورة لقمان ٢٧ .

(٤) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٥١، ١٥٢ .

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : "يسألونك عن الساعة أيا ن مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (١) .
ففي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى فإنه هو الذي يظهر أمرها ومتى يكون على التحديد لا يعلم ذلك إلا هو تعالى وحده ولهذا قال : "ثقلت في السماوات والأرض" قال قتادة : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض... (٢) . أي أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السماوات والأرض .

وقال تعالى : "قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيا ن يبعثون بل إدراك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم عمون" (٣) .

أي أن الله تعالى يقول آمرا رسوله ﷺ أن يقول معلما لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة (٤) .

وقال تعالى : "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" (٥) .

(١) سورة الأعراف ١٨٧ .

(٢) ابن كثير (مختصر) ج ٢ ص ٧١ .

(٣) سورة النمل ٦٥، ٦٦ .

(٤) انظر ابن كثير (مختصر) ج ٢ ص ٦٨٠ .

(٥) سورة لقمان ٣٤ .

"إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه" (١).

وقال تعالى : "يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيما أنت من ذكرها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها" (٢).

فالقرآن الكريم قد نفى عن الرسول ﷺ معرفة وقت الساعة وبين أن مهمته تتمثل في الإنذار بها للتهيئ لها قبل أن تأتي بغتة لا تحديد وقتها الذي هو من الغيب الذي استأثر الله تعالى به فلا يعلمه بني مرسل ولا ملك مقرب وفي حديث جبريل عليه السلام أنه سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل "فالمسئول رسول الله ﷺ والسائل جبريل عليه السلام كلاهما لا يعلم علم الساعة فمردها ومرجعها إلى الله تعالى وحده فهو الذي يعلم وقتها على التعيين .

ومن ذلك : أن الله تعالى وحده هو الذي يتولى الحساب في الآخرة : "وكفى بالله حسيبا" (٣).

- لأنه تعالى هو العدل وحكمه هو العدل المطلق : "إن الله لا يظلم مثقال ذرة" (٤).

"قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا" (٥).

(١) سورة فصلت ٤٧ .

(٢) سورة النازعات ٤٢ : ٤٦ .

(٣) سورة الأحزاب ٣٩ .

(٤) سورة النساء ٤٠ .

(٥) سورة النساء ٧٧ .

"ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا" (١).

"اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب" (٢).

"وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون" (٣).

"وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون" (٤).

— ولأنه تعالى هو العالم المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها

وكبيرها دقيقها ولطيفها :

"وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" (٥).

"يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق" (٦).

"يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل

شيء شهيد ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى

ثلاثة إلا هورابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم

أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم" (٧).

من أجل ذلك نفى القرآن الكريم قيام الرسل عليهم السلام بمحاسبة أحد من

الخلق يوم القيامة يحكي القرآن الكريم قول قوم نوح وجوابه لهم فيقول سبحانه :

(١) سورة الكهف ٤٩ .

(٢) سورة غافر ١٧ .

(٣) سورة يونس ٥٤ .

(٤) سورة الزمر ٦٩ .

(٥) سورة الأنبياء ٤٧ .

(٦) سورة غافر ١٩، ٢٠ .

(٧) سورة المجادلة ٧، ٦ .

"قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون" (١).

وقال تعالى لنبيه ﷺ : "ولا تظر الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين" (٢).

وقال تعالى : "فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب" (٣).

وقال تعالى : "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إنا إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم" (٤).

وجاء في الحديث ما يدل على أن الله عز وجل سيحكم عبده يوم القيامة ولن يكون بينهما ترجمان فعن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : "ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة" (٥).

فهذه النصوص وما في مثل معناها تثبت بوضوح أن الله تعالى وحده هو المحاسب للناس جميعا وبدون واسطة فليس للرسول عليهم السلام دخل في مسألة الحساب :

(١) سورة الشعراء ١١١ : ١١٣ .

(٢) سورة الأنعام ٥٢ .

(٣) سورة الرعد ٤٠ .

(٤) سورة الغاشية ٢١ : ٢٦ .

(٥) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٣٥ ، ومسلم ج ٧ ص ١٠١ .

"ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين" (١)
"الملك يومئذ لله يحكم بينهم" (٢)

ومن ذلك : أن الشفاعة في الآخرة لمن له ملك السماوات والأرض وهو الله تعالى وحده "قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض" (٣) فحال ملكه للسماوات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة له تعالى وحده .

كما أخبر القرآن الكريم أنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضى قوله وعمله كما قال عز وجل :

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه" (٤)

يقول ابن كثير رحمه الله : وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة (٥)

وقال تعالى : "إن ربيكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذالكم الله ربيكم فاعبدوه أفلا تذكرون" (٦)

(١) سورة الأنعام ٦٢ .

(٢) سورة الحج ٥٦ .

(٣) سورة الزمر ٤٤ .

(٤) سورة البقرة ٢٥٥ .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ .

(٦) سورة يونس ٣ .

وقال تعالى : "يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً" (١) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العهد (شهادة أن لا إله إلا الله) وبيراً إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل . وقال ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية : "إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً" ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقيم قالوا : أيا أبا عبد الرحمن فعلمنا قال : قالوا : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا إنك أن تكلفني إلى عملي يقربني من الشرو ويباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فأجعل لي عندك عهداً تؤدبه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي : وكان يلحق بهن "خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك" (٢) .

وقال تعالى : "يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً" (٣) .

وقال تعالى : "وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون" (٤) .

وقال تعالى : "قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة

(١) سورة مريم : ٨٥ : ٨٧ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٦٦ .

(٣) سورة طه : ١٠٩ .

(٤) سورة الأنبياء : ٢٦ : ٢٨ .

عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير" (١).

وقال تعالى : "وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى" (٢).

وقال تعالى : "يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً" (٣).

وفي حديث الشفاعة : (... فانطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ثم قال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع ...) (٤).

وفي حديث آخر (... فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول : ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط قال فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه فيحد لي حدا فأخرجهم فأدخلهم الجنة ...) (٥).

(١) سورة سبأ ٢٢، ٢٣ .

(٢) سورة النجم ٢٦ .

(٣) سورة النبأ ٢٨ .

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٥ : ٦٩ واللفظ له وصحيح البخاري ج ٢ ص ٢٣٠ وج ٣ ص ١٤٩ .

(٥) متفق عليه من حديث أنس : صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٨٦، ٢٨٧ واللفظ له وصحيح مسلم ج ٣ ص ٥٣ : ٥٨ .

فهذه النصوص - وما في مثل معناها - شاهدة على أن الشفاعة في الآخرة تنفع عند الله تعالى ممن أذن له أن يشفع فيه ورضى قوله وعمله فالشفاعة لا تقع لأحد إلا بشرطين :

١- إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع .

٢- رضاه عن المأذون بالشفاعة فيه .

وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه ولقي العبد ربه مخلصا غير شك في ذلك كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين سأل النبي ﷺ : "من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه" (١) .

وفي حديث آخر عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا (٢) .

فبين النبي ﷺ أن الشفاعة لا تكون إلا لأهل التوحيد الخالص يقول ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة المتقدم : تأمل هذا الحديث كيف جعل النبي ﷺ أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين : أن الشفاعة تنال باتخاذ أولياءهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة : هو تجريد التوحيد فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذ وليا أو شفيعا أنه يشفع له وينفعه عند الله كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٣٠ و ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٩٣، ٩٨ ومسلم ج ٣ ص ٧٤ .

ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله .

كما قال في الفصل الأول "من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه" وفي الفصل الثاني "ولا يشفعون إلا لمن ارتضى" وبقي فصل ثالث وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد واتباع الرسول ﷺ فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعها وعقلها : لا شفاعة إلا بإذنه ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيدة واتباع رسوله ﷺ (١) .

فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فإنه سبحانه عقلها بأمرين : رضاه عن المشفوع له وإذنه للشافع . فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة (٢) .

والقرآن الكريم قد نفى الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء نفيا قاطعا كمال قال تعالى :

"واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون" (٣) .

"وأنذربه الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون" (٤) .

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٦٩، ٣٧٠ .

(٢) إغاثة اللفهان ج ١ ص ٢٣٩ .

(٣) سورة البقرة ٤٨ .

(٤) سورة الأنعام ٥١ .

"ونكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع" (١).
"فما لنا من شافعين ولا صديق حميم" (٢).

"الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون" (٣).
"قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ومالهم فيهما من شرك ومالهم منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له" (٤).

يقول ابن القيم رحمه الله في الكلام على هذه الآية الكريمة: "وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعا قطعاً يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً أو شفيعاً فهو "كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت" فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه فإن لم يكن مالكا كان شريكاً للمالك فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده فنفي سبحانه وتعالى المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها للمشرك وهي الشفاعة بإذنه" (٥).

(١) سورة الأنعام ٧٠.

(٢) سورة الشعراء ١٠٠، ١٠١.

(٣) سورة السجدة ٤.

(٤) سورة سبأ ٢٢، ٢٣.

(٥) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٧٢.

"ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع" (١).

والمراد بالظلم في الآية الشرك ففي صحيح البخاري عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينما لم يلبس إيمانه بظلم فقال رسول الله إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه "إن الشرك لظلم عظيم" (٢).

"ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون" (٣).

"فما تنفعهم شفاعة الشافعين" (٤).

فهذه الآيات شاهدة على بطلان الشفاعة الشركية وقطع كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعا وصدق الله تعالى : "إن الله لا يغفر أن يشرك به" (٥).

والخلاصة : أن الشفاعة في الآخرة لله تعالى وحده "أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض" (٦). وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضى قوله وعمله ولا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى إلا بعد إذنه للشافع أن يشفع ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه وهو تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد واتباع

(١) سورة غافر ١٨ .

(٢) ج ٣ ص ١٢٨ : ١٧٣ .

(٣) سورة الزخرف ٨٦ .

(٤) سورة المدثر ٤٨ .

(٥) النساء ٤٨ .

(٦) سورة الزمر ٤٤، ٤٣ .

النبي ﷺ وتحكيمه في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا كما قال تعالى :

"فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (١)

أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به وينقادون في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث :

"والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" (٢) .
فالشفاعة إذن من نصيب أهل التوحيد الخالص الذين جردوا التوحيد من الشرك وأسبابه ووسائله . أما اعتقاد أهل الشرك من أن الأصنام والأنداد يشفعون لهم عند الله يوم القيامة كمال قال الله تعالى :

"ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله" (٣) فباطل .

والقرآن الكريم - كما تقدم - قد نفى الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء والفرق بين الشفيع بإذنه والشفيع من دونه كالفرق بين الشريك والعبد المأمور فالشفاعة التي أبطلها الله تعالى شفاعة الشريك فإنه لا شريك له والتي أثبتتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول اشفع في فلان وذلك أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد

(١) سورة النساء ٦٥ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤١٠ .

(٣) سورة يونس ١٨ .

بها الموحدون بفضلهم ومشيتهم وأولى الخلق بالشفاعة في الآخرة سيدنا محمد ﷺ فقد
صحت بذلك الأخبار المتواترة وصدق الله تعالى إذ يقول :
"عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا" (١).

والخلاصة : أن الأنبياء والرسل عليهم السلام قد أعلنوا في وضوح أنهم لا
يملكون من خصائص الربوبية أو الألوهية شيء وأنه سبحانه وحده المتفرد في كل
شيء فهو سبحانه يحيط ولا يحاط به ويحصر خلقه ولا يحصرونه ويدركهم ولا
يدركونه .

كما أنه سبحانه في علمه فوق كل عليم وفي قدرته فوق كل قدير وفي جوده
فوق كل جواد وفي رحمته فوق كل رحيم وفي جماله فوق كل جميل وفي غناه فوق كل
غني وفي علوه فوق كل عال متفرد بتدبير ملكه وملكوته فلا قبض ولا بسط ولا منع ولا
عطاء ولا هدى ولا ضلال ولا سعادة ولا شقاوة ولا موت ولا حياة ولا نفع ولا ضر إلا بيده
لا مالك غيره ولا مدبر سواه لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذرة في السماوات والأرض
لا يحتاج إلى وزير ولا ظهير ولا معين ولا يغيب فيخلفه غيره ولا يعي فيعينه سواه
متجلبيا في كماله بأمره ونهيه ووعدته ووعيده وثوابه وعقابه يهدي من يشاء منه نعمة
وفضلا ويضل من يشاء حكمة منه وعدلا لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سدى ولا يتقدم
أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء وفيمن شاء .

فيلزم من ذلك أن يكون هو المقصود والمدعو وحده والمعبود وحده .
إن إفراده تعالى بهذه الخصائص وغيرها يلزم منه إفراده تعالى بالعبادة بكل
أنواعها فلا تصرف لسواه :

(١) سورة الإسراء ٧٩ .

"ذلکم اللہ ربکم لا إله إلا هو خالق کل شیء فاعبدوه وهو علی کل شیء

وکیل" (١)

"ألا یسجدوا لله الذی یرج الخب فی السماوات والأرض ویعلم ما تخفون وما

تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظیم" (٢)



(١) سورة الأنعام ٩٠٢ .

(٢) سورة النمل ٢٦ .



المبحث الثالث المنهي عن الغلو في الدين حياقة مقام الحق حيم

قال تعالى مخاطبا أهل الكتاب :

"يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً" (١).

يقول ابن كثير في معنى هذه الآية الكريمة : "ينهي الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلا أو ضلالا أو رشادا أو صحيحا أو كذبا ولهذا قال الله تعالى :

"اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله" (٢).

(١) سورة النساء ١٧١ .

(٢) سورة التوبة ٣١ .

وقوله تعالى : "ولا تقولوا على الله إلا الحق" أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا وتنزه وتقدس وتوحد فلا إله إلا هو ولا رب سواه ... إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ورسول من رسله (١).

كما أمر نبيه ﷺ أن يعلن أهل الكتاب بالكف عن مجاوزة الحد في اتباع الحق . قال تعالى :

"قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" (٢).

ورسول الله ﷺ قد أرشد الأمة إلى ترك الغلو وحذرها منه نصحا وإرشادا لها وحماية لمقام التوحيد ففي الحديث :

"... وإياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين" (٣) ولم يكتف الرسول ﷺ بهذا بل جعل من نفسه القدوة والمثل لأصحابه في ترك الغلو فنهاهم عن الغلو في شخصه والمبالغة في مدحه فيقول :

"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله" (٤) ومعلوم أن الإطراء هو : مجاوز الحد في المدح .

(١) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٦٧، ٤٦٨ .

(٢) سورة المائدة ٧٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢١٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٤ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وفي الحديث : أن ناسا قالوا يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال : "يا أيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل" (١).
وروى أبو داود عن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك قال ﷺ : ويحك أتدري ما تقول وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال :

"ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك" (٢).

إن الله تعالى رب كل شيء ومليكه والخير كله بيده لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما قضى والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء وهو الذي يشفع الشافع إليه ولهذا أنكر على الأعرابي قوله (نستشفع بالله عليك) وسبح الله تعالى كثيرا وعظمه لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وتعالى أن شأن الله تعالى أعظم من ذلك حتى أنه صلى الله عليه قد تغير تغيرا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

والمراد بالاستشفاع بالرسول ﷺ استجلاب دعائه ولهذا لم ينكر على الأعرابي قوله : (إنا نستشفع بك على الله).

(١) رواه النسائي عن أنس رضي الله عنه نقلا عن معارج القبول ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) فتح المجيد ص ٥٧٨ .

وفي المسند : أن رسول الله ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال ﷺ : "عرف الحق لأهله" (١) .

وفي مسند الإمام أحمد - وغيره - عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت فقال له النبي ﷺ "اجعلني لله عدلا بل ما شاء الله وحده" (٢) .

وقال ﷺ لأصحابه حين رأهم قاموا له على جهة التعظيم : "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا" (٣) .

وصلى بهم مرة جالسا من وجع وصلوا وراءه قياما فأشار إليهم أن اجلسوا ثم قال لهم بعد أن فرغ من صلاته :

"كدتم أن تفعلوا آنفا فعل فارس بعظمائها يجلس الرجل ويمثل الناس قياما بين يديه" (٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ "لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم" (٥) .

وروى الإمام مالك عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (٦) .

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٧٤ .

(٢) المسند ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) دعوة التوحيد — د/ محمد خليل هراس ص ٦٠ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) رواه أبو داود بإسناد حسن نقلا عن فتح المجيد ص ٢٥٣ .

(٦) الموطأ ج ١ ص ١٧٢ .

يقول الإمام النووي : إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا خوفا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية (١).

كما كره ﷺ من أصحابه أن يواجهوا بالمدح فيفضي إلى الغلو كما غلت اليهود في عزيز والنصارى في المسيح لذلك نهى أصحابه أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب في الارتفاع به ﷺ فوق منزلته وهي أنه عبد الله ورسوله فهو ﷺ لما أكمل الله تعالى له مقام العبودية صار يكره أن يمدح صيانة لهذا المقام وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحا لها وحماية لمقام التوحيد .

وتلم ظاهرة الكسوف بالشمس يوم وفاة ولده (إبراهيم) فيتحدث المسلمون بأنها كسفت حزنا على موت (إبراهيم) فيسارع الرسول ﷺ الأمين على عقيدة التوحيد إلى تفنيد هذا الإدعاء ودحضه قبل أن يتحول إلى أسطورة وتتناقلها الأجيال ويقف في المسلمين خطيبا ويعلن في قوة :

"إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته" فهذه المواقف من صفوة الخلق وخاتم الأنبياء تصح كثيرا من المفاهيم الموروثة والتي أقيمت على ظنون وتخمينات ما أنزل الله بها من سلطان .

وكما أعلن الإسلام رفضه للغلو أعلن رفضه للرهبانية فهي نزوع إلى الغلو والتشدد وانحراف عن نهجه وإعراض عن سنة النبي ﷺ ولذلك طارد النزوع إلى هذه الوجهة فيما جاءت الحنيفية من مخالفة النصارى فيما هم عليه من الرهبانية المبتدعة قوله تعالى :

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٥ ص ١٣ .

"ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا
في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء
رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم
فاسقون" (١) .

وعقبها بقوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم
كفلين من رحمته وجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل
الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله
ذو الفضل العظيم" (٢) .

فالإيمان بالرسول ﷺ هو تصديقه وطاعته واتباع شريعته وفي ذلك مخالفة
للرهبانية لأنه لم يبعث بها بل نهى عنها وأعلن رفضه ومطاردته لتلك الأفكار
النصرانية من البيئة الإسلامية فعن أبي قلابة قال : أراد أناس من أصحاب رسول
الله ﷺ أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويترهبوا فقال رسول الله ﷺ فغلظ فيهم
المقالة ثم قال :

"إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم
فتلك بقاياهم في الأديار والصوامع فاعبدوا الله ولا تشركوا به وحجوا واعتمروا
واستقيموا يستقم بكم" (٣) .

وروى البخاري وغيره أن رهطا من الصحابة ذهبوا إلى بيوت النبي ﷺ
يسألون أزواجه عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها - أي اعتبروها قليلة - ثم

(١) سورة الحديد ٢٧ .

(٢) سورة الحديد ٢٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر .

قالوا أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطرو وقال الثاني : وأنا أقوم الليل فلا أنام وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فلما بلغ النبي ﷺ بين لهم خطأهم وقال لهم : "إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له ولكني أقوم وأنام وأصوم وأفطرو وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني".

وهكذا نجد أن رسول الله ﷺ قد جعل من نفسه الشريفة القدوة والمثل لأصحابه ولجميع المسلمين في ترك الغلو وفي مطاردة النزوع إلى الرهبانية التي يأبها الإسلام فطبيعته تأبى التطرف إلى اليمين أو اليسار.





المبحث الرابع حرب الإسلام على الأوثان والخرافات والشياطين من خطر على التوحيد والحق والعدل

لقد تعلم المسلمون من كتاب ربهم أن هذا الكون مربوط بقوانين مطردة وسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول قال تعالى :

"قلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا" (١).

وأهل التوحيد الخاص يحترمون هذه السنن الكونية ويطلبوا المسببات من أسبابها التي ربطها الله بها ويعرضوا عن الأوهام والخرافات القائمة على غير أساس من العلم أو الواقع الصحيح إنما هو انسياق وراء الضعف وتصديق للوهم .
والإسلام قد أعلن الحرب على هذه المعتقدات الجاهلية الفاسدة التي يوحى بها الشياطين :

"وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا" (٢).

(١) سورة فاطر ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام ١١٢ .

والتي أشاعتها الوثنية الضالة ، أعلن الإسلام حربه على هذه المعتقدات لتطهير عقيدة المسلم من شوائب الشرك وبقايا الضلال لاسيما وقد كثر اليوم في صفوف المسلمين من يحترف الدجل والشعوذة ويدعي اتصاله بالجن أو غير ذلك بل إن من المسلمين من يعتقد في بعض الأمور أنها تشفي من المرض أو تقي منه أو أن بعض المخلوقات تجلب خيرا أو تدفع شرا بذاتها رغم أن كل هذه الأمور تصادم سنن الله تعالى وتنافي توحيده الذي بعث به رسله .

ومما جاء في حماية الإسلام جناب التوحيد وتجنب ما يسيء إليه أو يمسّه من الشركات والخرافات والأوهام والبدع ليبقى صافي مضيء كما أراد الله عز وجل فمن ذلك :

النهي عن لبس الحلقة والخيط ونحوهما بقصد رفع البلاء أو دفعه

فعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة فقال : ويحك ما هذه ؟ قال من الواهنة^(١) قال أما إنها لا تزيدك إلا وهنا انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا^(٢) .

وإنما نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم وفيه اعتبار المقاصد .

(١) الواهنة : عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيرقى منها وقيل : هو مرض يأخذ في العضد وهي تأخذ الرجال دون النساء .

(٢) المسند ج ٤ ص ٤٤٥ .

النهي عن تعليق التمانم ونحوها بقصد دفع الآفات والعاهات

فعن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرقي (١)
والتمانم (٢) والتبولة (٣) شرك (٤) .

وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من تعلق تميمة فلا
أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له" (٥) .

(١) المراد بالرقي في هذا الحديث الرقي التي هي من كلام الكفار والرقي المجهولة والتي بغير العربية ومالا يعرف
معناها . وأما الرقي بالكتاب والسنة واللسان العربي فلا نهي فيه بل هو سنة (شرح النووي عل صحيح مسلم
ج ١٤ ص ١٦٩) .

فرسول الله ﷺ رقى ورقى وأمر بها وأجازها في كثير من الأحاديث وعن عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا
نرقي في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقي ما لم يكن
فيه شرك (صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٨٧) .

وقال العلماء الرقي لا تجوز إلا بإجماع ثلاثة شروط فإذا اجتمعت فيها كانت رقية شرعية وإن اختلف منها شرط
كان بضد ذلك . الأول : أن تكون من الكتاب والسنة . والثاني : أن تكون باللغة العربية محفوظة ألفاظها
مفهومة معانيها . الثالث : أن يعتقد أنها سبب من الأسباب لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل فلا يعتقد النفع فيها
لذا قلنا بل فعل الرقي السبب والله المسبب إذا شاء .

(٢) التمانم : شيء يعلق على الأولاد من العين . واختلف العلماء من الصحابة والتابعين في التمانم التي من
الكتاب والسنة فقالت طائفة : يجوز ذلك وهو قول عائشة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو جعفر الباقر
وغيرهم من السلف وحملوا الحديث على التمانم التي فيها شرك . وقالت طائفة : يمنع ذلك وبه قال ابن مسعود
وابن عباس وحذيفة وعقبة بن عامر وجماعة من أصحاب ابن مسعود وأحمد وغيرهم واحتجوا بهذا الحديث وملائي
معناه .

(٣) التولة : شيء يصنعونه يزعمون أنه يعجب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته .

(٤) المسند ج ١ ص ٣٨١ .

(٥) المسند ج ٤ ص ١٥٤ .

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد فقالوا يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا قال :

"إن عليه تميمه فأدخل يده فقطعها فبايعه وقال من علق تميمه فقد أشرك" (١)

فهذه الأحاديث ونحوها صريحة في النهي عن تعليق التمايم والحروز والودع والخيوط المعقودة ونحو ذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلون زعما منهم أنها تدفع عنهم الآفات والعاهات واعتقاد هذا جهل وضلالة أبطله الرسول ﷺ - كما مر - حماية لعقيدة التوحيد إذ لا مانع إلا الله ولا دافع للآفات والعاهات غيره تعالى .

وقد آثرت هذه التعاليم في الصحابة ومن بعدهم رضوان الله عليهم أجمعين ، فارتفعوا بأنفسهم عن قبول هذه الأضاليل وتصدق تلك الأباطيل وحاربوا مثل هذه الأوهام التي لا قيمة لها فضلا عن مساسها بالتوحيد .

فعن عيسى بن حمزة قال : دخلت على عبد الله بن حكيم وبه حمرة فقلت ألا تعلق تميمه ؟ فقال نعوذ بالله من ذلك وفي رواية : الموت أقرب من ذلك . قال رسول الله ﷺ من علق شيئا وكل إليه (٢) .

وفي المسند وغيره عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه . قالت : وأنه جاء ذات يوم فتنحنح قالت : وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل إلى جنبي فرأى في عنقي خيطا قال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت

(١) المسند ج ٤ ص ١٥٦ .

(٢) المسند ج ٤ ص ٣١٠ .

خيطا أرقى لي فيه قالت : فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول :

"إن الرقي والتمايم والتولة شرك . قالت : فقلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقئها وكان إذا رقاها سكنت قال : إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقول كما قال رسول الله ﷺ : "أذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما" (١) .

ودخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فجذبه فقطعه ثم قال : "وما يؤمن أكثرهم بالله ألا وهم مشركون" (٢) .

بقي أن أقول أنه إذا كان لأهل الجاهلية في هذا الجانب سبب طويل فإنه لازال في عصرنا من يعلق التمايم على اعتقاد أنها تشفي من المرض أو تقي منه وإنها تحرس حاملها من اعتداء الجن أو مس العفاريت أو شر العين والحسد إلى آخر ما يزعمون على الرغم أن الإسلام قد شرع للوقاية والعلاج طرق معروفة وأنكر على من تركها واتجه إلى طرق تزل بتوحيده فيقول ﷺ : "تداووا فإن الذي خلق الداء خلق الدواء" (٣) .

ويقول ﷺ : "إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي هذه الثلاثة : شربة عسل أو شرطة محجم أو كية بنار" (٤) .

(١) المسند ج ١ ص ٣٨١ .

(٢) سورة يوسف ١٠٦ ، وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) رواه أحمد .

(٤) متفق عليه .

وهذه الأنواع الثلاثة تشمل بروحها وبالقياس عليها في عصرنا ما يتناول من الدواء بطريق الفم والتداوي بطريق العملية الجراحية والتداوي بطريق الكي ومنه العلاج بالكهرباء^(١).

أما تعليق خرزة أو ودعة أو نحو ذلك أو قراءة بعض الرقي المطلسة التي ليس لها معنى أو المزوجة بالسحر والشرك للعلاج أو للوقاية فهو جهل وضلال يصادم سنن الله وينافي توحيده.

النهي عن إتيان الكهان والمنجمين والعرافين وأصحاب الرمل ونحو ذلك ممن يدعون معرفة الغيوب الماضية أو المستقبلية

حينما بعث رسول الله ﷺ وجد في المجتمع طائفة من الدجالين تعرف باسم (الكهان) و(المنجمين) و(العرافين) يدعون معرفة الغيب الذي استأثر الله تعالى به فمنهم من كان يزعم أنه له تابعا من الجن يلقي إليه الأخبار كما قال تعالى :
"وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم المشركون"^(٢).

وكما قال تعالى : "هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك
أثم يلقون السمح وأكثرهم كاذبون"^(٣).

(١) انظر د/ القرضاوي الحلال والحرام ص ٢٣٣ .

(٢) سورة الأنعام ١٢١ .

(٣) سورة الشعراء ٢٢١ : ٢٢٣ .

فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة
الفسقة فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة
من عالم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون
بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من
السماء كما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت سألت أناس رسول
الله ﷺ عن الكهان فقال لهم : "ليسوا بشيء قالوا يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانا
الشيء يكون حقا قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرها في
أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة" (١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إن الملائكة
تنزل في القنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشيطان السمع
فيسمعه فيجوبه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم" (٢).

ومن هؤلاء الدجالين من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب
يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله وهذا يخصونه باسم
العراف وهو الذي يدعي معرفة الوقائع كالسرقة وسارقها والضالة ومكانها بأسباب
ومقدمات يدعي معرفتها بها.

وقيل : الكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الأمور المستقبلية ويدعي معرفة
الأسرار فيخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها.

وقيل : إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم.

وقيل : العراف طرف من السحر والساحر أخبث.

(١) صحيح مسلم ج ١٤ ص ٢٢٥ وانظر البخاري ج ٤ ص ٢٠٠، ١٩٠.

(٢) رواه البخاري .

وقيل : المنجم يدخل في اسم الكاهن وقيل هو من جنس الكاهن وأسوأ حالا منه فيلحق به من جهة المعنى (١) .

وكما أكذبهم الإسلام كلهم فإنه قد صرح بأن هذه الأعمال كفر وأنها تستوجب النار. فعن فبيضة بن المخارق قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
"العيافة - والطيرة - والطرق من الجبت" (٢) .

العيافة : الخط في الرمل وهو ضرب من التكهن لا يزال حتى اليوم .

الطرق : الضرب بالحصى وهو نوع من التكهن أيضا .

الجبت : ما عبد من دون الله تعالى .

وقد جاء بعض الوفد إلى رسول الله ﷺ فظنوا أنه ممن يزعمون الإطلاع على الغيب فخبأوا له شيئا في أيديهم وقالوا له أخبرنا ما هو؟ فقال لهم في صراحة (إني لست بكاهن وإن الكاهن والكهانة والكهان في النار) (٣) .

ولم تقتصر حملة الإسلام على الكهان والمنجمين والعرافين وحدهم بل أشرك معهم في الإثم من يأتون ويسألونهم ويصدقونهم في أوهامهم وتضليلهم فعن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ : عن النبي ﷺ قال :

"من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقته لم تقبل له صلاة أربعين يوما"

وفي رواية : "من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة" (٤) .

(١) انظر : فتح المجيد ص ٢٩٥ ، والإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ص ٣٤٥ .

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن ، انظر : رياض الصالحين ص ٤٨٤ .

(٣) د. يوسف القرضاوي الحلال والحرام في الإسلام ص ٢٣٠ .

(٤) صحيح مسلم ج ١٤ ص ٢٢٧ .

فظاهر هذه الرواية أن الوعيد مرتب على مجيء العراف وسؤاله سواء صدقه أو شك في خبره . وصرح ﷺ بأن إتيان الكاهن وتصديقه كفر ، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

"من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد" (١) .

ففي هذا الحديث دليل على كفر الكاهن لأنه يدعي علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به وذلك كفر والمصدق له يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضا لأن في الكتاب المنزل على الرسول ﷺ "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو" (٢) "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير" (٣) .

"عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول" (٤) .

فإذا عرف المسلم هذا من قرآنه ثم صدق أن بعض الخلق من الكهان والمنجمين والعرافين يكشفون أستار القدر ويعلمون ما يكنه صدر الغيب من أسرار فقد كذب بما أنزل على رسول الله ﷺ ومن كذب بذلك كفر فإن ظاهر حديث أبي هريرة صريح في أن من أتى كاهنا يكفر متى اعتقد صدقه فلا يجتمع أبدا تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن الكريم لذلك جاء النهي الصريح عن إتيان الكهان والمنجمين والعرافين وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى ونحو ذلك من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

(١) فتح المجيد ص ٢٩٢ .

(٢) سورة الأنعام ٥٩ .

(٣) سورة لقمان ٣٤ .

(٤) سورة الجن ٢٦، ٢٧ .

التطير^(١) (التشاؤم)

التطير أو التشاؤم ببعض الأشياء من أمكنه وأزمته وأشخاص وغير ذلك من الأوهام التي راجت سوقها ولا تزال رائجة عند كثير من الناس فالتطير داء قديم ذكره الله عن الأمم الكافرة وأنهم كانوا يتطيرون بصفوة الخلق وهم الأنبياء واتباعهم فقدموا قال قوم صالح له :

"أطير نابك وبمن معك"^(٢) وكان فرعون وقومه : "إن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه"^(٣) وكثيرا ما قال أصحاب القرية - حينما ينزل بهم بلاء الله - لدعاتهم ورسل الله إليهم : "إنا تطيرنا بكم"^(٤) وكان جواب هؤلاء المرسلين "طائركم معكم" أي سبب شؤمكم مصاحب لكم وهو كفركم وعنادكم وعقوكم على الله ورسله . وكان المشركون يتطيرون برسول الله ﷺ كما في قوله تعالى :
"وإن تصبهم سيئة يقولوا هذا من عندك"^(٥) .

وهكذا دين المشركين واحد حيث انتكست قلوبهم وعقولهم فاعتقدوا الشر بمن هم مصدر الخير وهم الرسل عليهم السلام وما ذلك إلا لتمكن الضلالة في نفوسهم وانتكاس فطرهم وإلا فالخير والشر كلاهما بقضاء الله وقدره ويجريان حسب حكمة

(١) التطير : التشاؤم بالشيء وأصله أنهم كانوا في الجاهلية إذا خرج أحدهم لحاجة فإن رأى الطير طار عن يمينه يمين به واستمر وإن طار عن يساره تشاءم به ورجع .

(٢) سورة النمل ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف ١٣١ .

(٤) سورة يس ١٨ .

(٥) سورة النساء ٧٨ .

وعلمه تفضلا وعدلا فالخير تفضل منه وجزاء على فعل الطاعة والشر عدل منه وجزاء وعقوبة على فعل المعصية قال تعالى :

"ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك" (١).

ولما كان التطهير يخل بتوحيد المسلم وتوكله على الله عز وجل فإن رسول الله

ﷺ قد حذر منه تحذيرا شديدا :

فعن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : "لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا

هامه" (٢).

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : "لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل قيل

وما الفأل قال : الكلمة الطيبة" (٣).

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

"الطيرة شرك الطيرة شرك الطيرة شرك" (٤).

قال ابن مسعود : "وما منا إلا... ولكن يذهب الله بالتوكل" (٥).

يعني ابن مسعود : ما منا أحد إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك ولكن يذهب

الله ذلك عن قلب كل من يتوكل عليه ولا يثبت على ذلك الخاطر.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) سورة النساء ٧٩ .

(٢) صحيح مسلم ج ١٤ ص ٢١٣ .

(٣) المرجع السابق ج ١٤ ص ٢١٩ .

(٤) المسند ج ١ ص ٣٨٩ .

(٥) المرجع السابق .

"من ردت الطيرة من حاجته فقد أشرك : قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك ؟
قال : "أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك" (١) .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت يا رسول الله
أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان قال فلا تأتون الكهان قال قلت كنا
نتطير قال ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم (٢) .

فأخبر ﷺ أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته لا في التطير
به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه فأوضح ﷺ لأمتة الأمر
وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها
دلالة ولا نصبها سببا لما يخافونه ويحذرونه ولتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى
وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه وخلق لأجلها السماوات والأرض
وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى
فيها علة منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله
قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها وبادر خواطرها من قبل أستمكانها قال
عكرمة : كنا جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم : خير خير
فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير
والشر . وخرج طاوس مع صاحب له في سفر فصاح غراب فقال الرجل : خير فقال
طاوس : وأي خير عند هذا ؟ لا تصحبنى (٣) .

(١) نفسه ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) صحيح مسلم ج ١٤ ص ٢٢٣ .

(٣) انظر فتح المجيد ص ٣٠٦ .

وهكذا نجد أن الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته وذلك بتعلق القلب بها خوفا وطمعا ومنافاتها للتوكل على الله الذي لا ينفع ولا يضر غيره واعتقاد النفع والضرر في طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد وإنما تذهب وتجيء في معاشها وشئونها فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثرا في جلب خير أو دفع ضرر ينافي كمال التوحيد الواجب لذلك رأينا الإسلام قد نهى عن التطير وأخبر أنه شرك كما جاء في الأحاديث الصحيحة التي ذكرتها .

النهى عن السحر لما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله تعالى في ذلك

والسحر عبارة عما لطف وخفي سببه ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ومنه ما يكون كلاما يحفظ ورقي وعزائم وعقد ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقد ذكر ابن كثير عن الرازي أنواع ثمانية للسحر :

- الأول : سحر الكذابين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتي بالخير والشر وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام مبطلا لمقاتلهم وردا لمذهبهم .
- الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ويستدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودا على نهر أو نحوه وما ذاك إلا لأن النفوس قد خلقت مطيعة للأوهام .

□ الثالث : الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن وهم على قسمين : مؤمنون وكفار وهم الشياطين واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقي والدخن والتجريد وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

□ الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون والشعوذة ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشغل بالشيء المعين دون غيره ألا ترى ذا الشعبة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجهم لفطن الناظرون لكل ما يفعله .

يقول ابن كثير إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبة

ولهذا قال تعالى :

"فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم" (١) .

وقال تعالى : "يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" (٢) . ولم تكن تسعى في

نفس الأمر .

□ الخامس : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب

الهندسية ... فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل .

(١) سورة الأعراف ١١٦ .

(٢) سورة طه ٦٦ .

□ السادس : الاستعانة بخواص الأدوية في الأطعمة والدهانات ولا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد .

يقول ابن كثير : يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويحيل على جهلة الناس بهذه الخواص : سعيا أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات .

□ السابع : التعليق للقلب وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا أتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخالفة فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء .

□ الثامن : السعي بالنميمة من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس . يقول ابن كثير : النميمة على قسمين : تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه . فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين أو على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث "الحرب خدعة" فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه وإنما أدخل الرازي كثيرا من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطائفة مداركها لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه (١) . والإسلام قد حرم السحر وقال فيمن يتعلمون السحر :

"واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت

(١) مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٩ : ١٠١ .

وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون" (١).

فالساحر إن كان سحره مما يتلقى عن الشياطين فهو كافر كما نصت عليه آية سورة البقرة "ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا" "وما يعلمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتننة فلا تكفر" قال ابن عباس رضي الله عنهما وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر (٢) وقال ابن جريج في هذه الآية : لا يجترئ على السحر إلا كافر (٣) : "ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق" قال ابن عباس : من نصيب (٤) وقال الحسن : ليس له دين (٥) كما استدل بقوله تعالى : "ولو أنهم آمنوا واتقوا لثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون" من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد ابن حنبل وطائفة من السلف (٦) وقد نص أصحاب الإمام أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه .

وجاء في فتح المجيد : واختلفوا : هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفرو به قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله قال لأصحابه : إلا

(١) سورة البقرة ١٠٢، ١٠٣ .

(٢) فتح المجيد ص ٢٧٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٨ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) فتح المجيد ص ٢٧٧ .

(٦) ابن كثير ج ١ ص ٩٨ .

أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شيء يضر فلا يكفر وقال الشافعي : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك فإن وصف ما يوجب الكفر فهو كافر وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر^(١) .

والرسول ﷺ قد عد السحر بجميع أنواعه من كبائر الذنوب المهلكات التي تهلك الأمم قبل الأفراد وتردي أصحابها في الدنيا قبل الآخرة فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : "اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"^(٢) .

وعلمنا القرآن الكريم الاستعاذة من شر أرباب السحر كما قال تعالى :
"ومن شر النفاثات في العقد"^(٣) يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن فالنفث في العقد من طرائق السحرة وخواصهم .
وفي الحديث : "من نفث في عقدة فقد سحر ومن سحر فقد أشرك"^(٤) .
وقال تعالى : "ولا يفلح الساحر حيث أتى"^(٥) .

وكما حرم الإسلام على المسلم أن يذهب إلى الكهان والعرافين لسؤالهم عن بعض الغيوب والأسرار حرم عليه أيضا أن يلجأ إلى السحر أو السحرة للعلاج من مرض أو لحل مشكلة فهذا ما برىء رسول الله ﷺ منه فعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال :

(١) فتح المجيد ص ٢٢٧، ٢٢٨ .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الفلق ٤ .

(٤) رواه الطبراني .

(٥) سورة طه ٦٩ .

"ليس منا من تطير أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له" (١) .
فالرسول ﷺ قد نظم التطير والكهانة والسحر في سلك واحد فكل من تلقى
هذه الأمور عن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركا كالطيرة أو
كفرا كالكهانة والسحر فمن رضى بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل
واتباعه . وقول النبي ﷺ "ليس منا" فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر
كما أن فيه دليل على نفي الإيمان الواجب وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك
وأن الكهانة والسحر كفر .

وفي الحديث : "لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا مؤمن بسحر ولا قاطع
رحم" (٢) .

فالحرمة هنا ليست على الساحر وحده وإنما تشمل كل مؤمن بسحره مصدق
لما يقول .

وتشتد الحرمة إذا كان الساحر يستعمل في أغراض هي نفسها محرمة
كالإضرار في القلوب والأبدان والتفريق بين المرء وزوجه وغير ذلك مما يحصل في بيئة
السحارين .

(١) رواه البزار بإسناد جيد والطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه .

النهي عن علم التنجيم والتحذير منه

جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم فعن ابن عباس قال :
قال رسول الله ﷺ : "من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما
زاد" (١) .

وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال : "أن مما أخاف على أمتي التصديق
بالنجوم والتكذيب بالقدر وحيف الأئمة" (٢) .
والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

والتنجيم كما عرفه بعض المحققين هو : الاستدلال بالأحوال الفلكية على
الحوادث الأرضية .

وقال البخاري في صحيحه : قال قتادة : "خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة
للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدي بها فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع
نصيبه وكلف مالا علم له به" (٣) .

وفي رواية : "إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال جعلها زينة للسماء
وجعلها يهتدي بها وجعلها رجوما للشياطين فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد مال برأيه
وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به وأن ناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا
في هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كأن كذا وكذا ومن سافر بنجم كذا

(١) رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح .

(٢) فتح المجيد ص ٣١٦ .

(٣) فتح المجيد ص ٣١٥ .

وكذا كان كذا وكذا ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير
والحسن والدميم وما علم هذه النجوم وهذا الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب ولو
أن أحدا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده واسجد له ملائكته وعلمه أسماء
كل شيء (١).

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين وما زال
الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار وعمت به البلوى في
جميع الأمصار فمقل ومستكثر وعز في الناس من ينكره وعظمت المصيبة به في الدين
"إن لله وإن إليه راجعون".

وعلم التنجيم أو التأثير على نوعين :

□ الأول : أن يدعي المنجم أن الكواكب فاعلة مختارة وأن الحوادث تجري
بتأثيرها وهذا كفر بصريح النصوص وإجماع المسلمين لأنه اعتقاد أن هناك خالق
غير الله عز وجل وإن أحدا يتصرف في ملكه بغير مشيئته وتقديره سبحانه وهذا
النوع ينافي التوحيد تماما ويوقع في الكفر الصريح لأنه ينسب الحوادث إلى غير
من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال سبحانه : "هل من خالق
غير الله يرزقكم من السماء والأرض" (٢).

□ الثاني : الاستدلال بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها على حدوث الحوادث
ومن ذلك ما تطالعنا به الصحف والمجلات من ذكر البخت والنحوس والسعود
ويعلقون ذلك بحسابات البروج والنجوم ويصدق به بعض السذج فهذا مما لاشك
في تحريمه لأنه ادعاء علم الغيب وهو من السحر أيضا كما جاء في الحديث :

(١) هذه الرواية أخرجهما الخطيب في كتاب النجوم انظر فتح المجيد ص ٣١٥ .

(٢) سورة فاطر ٣ .

"من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع . فالأخبار عن الحوادث المستقبلية عن طريق الاستدلال بالنجوم على النحو الذي أشرنا إليه من ادعاء علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه فهو ادعاء لمشاركته سبحانه بعلمه الذي انفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة^(١) .

قال تعالى : "قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون"^(٢) .

وأما الاستدلال بالنجوم لمعرفة الاتجاه في الأسفار في البر والبحر ونحو ذلك فهذا لا بأس به وهو من نعمة الله تعالى قال سبحانه :

"وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون"^(٣) . وقال سبحانه : "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون"^(٤) .

قال الخطابي رحمه الله تعالى : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئا أكثر من أن الظل ما دام متناقصا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة

(١) انظر : د/ صالح بن فوزان : الإرشاد ص ٨٨، ٨٩ .

(٢) سورة النمل ٦٥، ٦٦ .

(٣) سورة الأنعام ٩٧ .

(٤) سورة النحل ١٥ .

إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته .

وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذا كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ولا مقصرين في معرفتهم^(١) .

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأسا أن يتعلم الرجل منازل القمر^(٢) .

وقال ابن رجب : والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه - أي علم التأثير - باطل محرم قليله وكثيره وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه من الاهتداء ومعرفة القبلة والطرق وهو جائز عند الجمهور^(٣) .

يقول الشيخ على محفوظ رحمه الله : وصفوة القول أن ما عند المنجم والرمال والذي يضرب بالحصى ونحوهم ليس علما حقيقيا وإنما هو ظن وتخمين مبني على أمارات عادية كثيرا ما تتخلف ويظهر كذبهم فيها وقد أكذبهم الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم ولعل النهي عن ذلك لغلبة الكذب في كلامهم ولإيهامهم العامة أن علم الغيب لا يختص به تعالى بوجه من جوه الاختصاصات السابقة وهو ما ننكره على المنجمين ونحوهم لذا قال العلامة ابن حجر في فتاويه الحديثية تعلم الرمل

(١) فتح المجيد ص ٣١٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) فتح المجيد ص ٣١٧ .

وتعليمه حرام شديد التحريم وكذا فعله لما فيه من إيهام العوام أن فاعله يشارك الله في غيبه وما أستاثر بمعرفته ولم يطلع عليه إلا أنبياءه ورسله^(١) عليهم السلام .

والخلاصة : أن حقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومناظير مقربة ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئا كثيرا جدا من العوالم العلوية حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقا لأنه كعلم الحساب . أما أن ينسب إلى هذه النجوم والكواكب شيء من الحوادث على الأرض من ذكر الحظوظ والنحوس والسعود ومن مرض أو موت أو حياة أو حرب أو سلم ونحو ذلك يكون في المستقبل فهذا هو الذي لاشك في كذبه وأنه ضلال ومنافي للتوحيد لأنه ظن وتخمين وخوض فيما أستاثر الله تعالى بمعرفته ولا يعلمه سواه .

والعجيب أن كثيرا من الناس يصدقون بكثير من الحوادث المستقبلية مثل ما يتعلق بالحروب ومستقبل الأفراد والأمم وتنشر هذه الأباطيل في الصحف والمجلات ولا يليق هذا من عاقل ذي دين للنصوص الواردة في ذم التنجيم والتحذير منه حماية للتوحيد .

النهي عن الاستسقاء بالأنواء

عن زيد بن خالد الجهني قال صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من

(١) الإبداع في مصار الابتداع للشيخ على محفوظ ص ٣٤٧ .

قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب وأما من قال مطرنا
بنوء كذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب^(١).

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ " ألم تروا إلى ما قال ريكم قال ما
أنعمت على عبادي من نعمة ألا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون الكواكب
وبالكواكب".

وفي رواية عنه : " ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس
بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون الكوكب كذا وكذا"^(٢).

وعن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : " أصبح
من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا
قال : فنزلت هذه الآية :

" فلا أقسم بمواقع النجوم " حتى بلغ " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون"^(٣).

روى الإمام أحمد والترمذي - وحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في
المختارة عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " وتجعلون رزقكم " يقول :
شركم " أنكم تكذبون " تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا .

وهذا أولى ما فسرت به الآية وروى ذلك عن علي وابن عباس وقتادة
والضحاک وعطاء الخرساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين^(٤).

(١) التلويح والمرجان ج ١ ص ١٤ .

(٢) صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٩ : ٦١ .

(٣) سورة الواقعة ٧٥ : ٨٢ .

(٤) فتح المغيد ص ٣٢٠ وانظر شرح التلويح على صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٢ .

والنوء في أصله ليس هو نفس الكوكب^(١) فإنه مصدر ناء النجم ينوء نؤاً أي سقط وغاب وقيل أي نهض وطلع .

والأنواء : هي منازل القمر وهي ثمان وعشرون منزلة ومنه قوله تعالى :
"والقمر قدرناه منازل" وبيان ذلك : أن ثمانية وعشرين نجماً معروفة المطالع في أزمئة السنة كلها وهي المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين يسقط في كل ثلاثة عشر ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته . وكان أهل الجاهلية يزعمون أنه عند طلوع ذلك النجم في الفجر ومغيب مقابله ينزل المطر أي أنه مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إليها ويقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وهم يريدون بذلك النجم ويعبرون عنه بالنؤ وهو طلوع النجم من ناء ينؤ إذا نهض وطلع أي أنه سمي نؤاً لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالشرق أي نهض وطلع^(٢) .

والاستسقاء بالأنواء إذن هو نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء أو إلى الطوالع وهذا من اعتقاد أهل الجاهلية - كما أشرت - الذي جاء الإسلام بإبطاله والنهي عنه لأن نزول المطر وانحباسه يرجع إلى إرادة الله ومشيئته وحكمته وتقديره وليس لطلوع النجم تأثير فيه فنسبة المطر الذي هو الرزق النازل من الله إلى النجم بأن يقال : مطرنا بنوء كذا أو بنجم كذا من أعظم الكذب والافتراء كما قال تعالى :
"وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون"^(٣) .

(١) النجم نفسه قد يسمى نؤاً تسميه بالمصدر قال أبو إسحاق الزجاجي في بعض آماله الساقط في الغرب هي

الأنواء والطالعة في الشرق هي البوارج (شرح النووي على صحيح مسلم ج ٤ ص ٦١) .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٦١ وانظر فتح المجيد ص ٣١٩ .

(٣) سورة الواقعة ٨٢ .

وعن جابر السوائي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أخاف على أمتي
ثلاثا: استسقاء بالنجوم وحيف السلطان وتكذيبا بالقدر" (١) .

وعن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا
يتركونهن : الفخر بالإحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم
والنياحة" (٢) .

فهذا الحديث دل على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الخصال
الرديئة التي منها الاستسقاء بالأنواء وورثتهم اليوم طائفة من هذه الأمة تجاوزوا منها
أسلافهم ونسبوا النعم إلى غير المنعم فنسبهم الإسلام إلى الجاهلية وكل ما يخالف ما
جاء به الإسلام فهو جاهلية .

ونذكر فيما يلي أقوال العلماء في حكم الاستسقاء بالنجوم ليتجنب المسلم
كل ما ينافي التوحيد : قال النووي رحمه الله : " وأما معنى الحديث - أي حديث زيد
خالد المتقدم - فاختلف العلماء في كفر من قال : مطرنا بنوء كذا على قولين :

أحدهما : هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصل لإيمان فخرج من منه
الإسلام . قالوا وهذا فيمن قال ذلك معتقدا أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر .
كان بعض أهل الجاهلية يزعم ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره .

وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر
الحديث قالوا وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقدا أنه من الله تعالى وبرحمته
وأن النوى ميقنات له وعلامة اعتبارا بالعادة فكأنه قال مطرنا في وقت كذا فهذا لا يكفر
واختلفوا في كراهته والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها وسبب الكراهة

(١) فتح المجد ص ٣١٦ .

(٢) صحيح مسلم ج ٦ ص ٢٣٥، ٢٣٦ .

أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم .

والقول الثاني : في أصل تأويل الحديث : أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث على الكوكب وهذا فيمن لا يفتقد تدبير الكوكب ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة من الباب (أصبح من الناس شاكر ومنهم بها كافر) وفي الرواية الأخرى (ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم كافر) وفي الرواية الأخرى (ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين) فقوله بها يدل على أنه كفر بالنعمة (١).

وفي كتاب فتح المجيد : فإذا قال قائل مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فلا يخلوا إما أن يعتقد أن له تأثيرا في إنزال المطر فهذا شرك وكفر وهو الذي يعتقد أهله الجاهلية ... وأما أن يقول مطرنا بنوء كذا مثلا لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز وذلك أن القائل بذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء فيكون ذلك شركا أصغر (٢).

وفي موضع آخر : إذا اعتقد إنسان أن للنوء تأثيرا في إنزال المطر فهذا كفر لأنه أشرك في الربوبية والمشارك كافر وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر لأنه

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ٢ ص ٦١٠٦٠ .

(٢) فتح المجيد ص ٣٢٢ .

نسب نعمة الله إلى غيره ولأن الله لم يجعل النوء سببا لإنزال المطر فيه وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء (١).

وقال القرطبي في شرح حديث (زيد بن خالد) وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح فمنهم من ينسبه إلى الطالع ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إيجاد واختراع ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث فنهى الشارع عن إطلاق ذلك لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم (٢).

ويذكر القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن أقوال بعض العلماء في حكم من قال مطرنا بنوء كذا فيقول : قال الشافعي رحمه الله : لا أحب أحدا أن يقول مطرنا بنوء كذا وكذا وإن كان النوء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يضر ولا يحبس شيئا من المطر والذي أحب أن يقول : مطرنا وقت كذا كما تقول مطرنا شهر كذا ومن قال : مطرنا بنوء كذا وهو يريد أن النوء أنزل الماء كما عني بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر حلال دمه أن لم يتب .

وقال أبو عمر بن عبد البر وأما قوله ﷺ حاكيا عن الله سبحانه (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمعناه عندي وجهين : أما أحدهما فإن المعتقد بأن النوء هو الموجب لنزول الماء وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرا صريحا يجب استتابته عليه وقتله إن أبي لنبذه الإسلام ورده القرآن . والوجه الآخر أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق في عمله وهذا وإن كان وجها مباحا فإن فيه أيضا كفر بنعمة الله عز وجل وجهلا بلطيف حكمته في أنه

(١) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

(٢) فتح المجيد ص ٣٢٥ .

ينزل الماء متى شاء مرة بنوء كذا ومرة بنوء كذا وكثيرا ما ينوء النوء فلا ينزل معه شيء من الماء وذلك من الله تعالى لا من النوء وكان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مطر: مطرنا بنوء الفتح ثم يتلو (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) (١) قال أبو عمر: وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: "مطرنا بفضل الله ورحمته" (٢). ومحصل ما تقدم يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر ولهذا قطع كثير من العلماء بتحريمه وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر فيكون من كفر النعمة لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها كما قال تعالى:

"ألم ترى إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار" (٣).

هذا حال الذين وهبوا نعمة الله ممثلة في رسول وفي دعوة إلى الإيمان وفي قيادة إلى المغفرة وإلى مصير في الجنة فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله "كفرا" أولئك هم السادة القادة وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم وأنزلوهم بها لقد استبدلوا بنعمة الرسول ودعوته إلى التوحيد كفرا وجعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته سبحانه (٤).

وقال تعالى: "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون" (٥).

(١) سورة فاطر ٢ .

(٢) ج ١٧ ص ٢٢٩، ٢٣٠ .

(٣) سورة إبراهيم ٢٨ : ٣٠ .

(٤) سيد قطب رحمه الله - الظلال ج ٤ ص ٢١٠٥ بتصريف خفيف .

(٥) سورة النحل ٨٣ .

أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره .

وقال تعالى : " وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون " (١) .

ويقول تعالى عن عاد وثمود الذين اغتروا بقوتهم وجحدوا أنعم الله :

"فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون " (٢) .

ويقول سبحانه عن قارون الذي أنكر نعمت الله وتفاخر بحوله وقوته :

"إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يستل عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا باليت

(١) سورة النحل ١١٢ : ١١٤ .

(٢) سورة فصلت ١٤ : ١٨ .

لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير
لن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له
من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه
بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله
علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون" (١).

وبعد : فإن النصوص السابقة تؤكد على أن نعم الله التي لا تقبل النكران لا
يصح بحال من الأحوال أن تضاف إلا إليه وحده سبحانه وهو الذي يحمد عليها وهذه
حال أهل التوحيد الخالص .

لذا يجب علم المسلم أن يبتعد عن بعض الألفاظ مثل لولا فلان ما كان كذا
وكذا ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة الكثير من نسبة
حصول النعم واندفاع النقم إلى غير الله سبحانه لا أنه تفضل من الله وحده ليس
بحول العبد ولا بقوته فالاعتراف بفضل الله تعالى وأنعمه ونسبة جميع النعم إليه من
صميم التوحيد .

والخلاصة :

أن اعتقاد النفع أو الضرر في أشياء لم يجعلها الله تعالى كذلك سواء كانت
هذه الأشياء إنسان أم حيوان أم طائر أم جماد كما هو شائع لدى بعض الناس يخل
بالتوحيد كما أنه خطر على العقل والسلوك لأنه لا يقوم على علم ولا هدى ولا كتاب
منير بل إنه من سخر العقول وفساد الفطر وعمى القلوب وتمكن الخرافات والجهل
من النفوس لأن من أفرغ قلبه من التوحيد الخالص فإنه يملأه بالأوهام والخرافات

(١) سورة القصص ٧٦ : ٨٢ .

والبدع والأباطيل "فماذا بعد الحق إلا الضلال" (١). "ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل" (٢).

ولاشك أن أهل التوحيد الخالص من أبعد ما يكونوا عن هذا كله والإيمان في قلوبهم أعظم من أن يدخل عليه مثل هذه المعتقدات الفاسدة وهم أجل شأنًا وأقوى يقينًا من أن يتوكلوا على غيره أو يثقوا بغيره أو يطلبوا دفع المضار وجلب المنافع من غيره تعالى أو ينسبوا أنعمه إلى غيره .



(١) سورة يونس ٣٢ .

(٢) سورة لقمان ٣٠ .

وبعد : فهذه إطلالة متواضعة أحببت أن أساهم فيها بجهدى القليل في هذا الموضوع الجليل موضوع التوحيد الخالص رأس الإسلام وأشرف المطالب وضده الذنب الذي لا يغفر :

"إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" (١).

ولا أزعج أنني قد آتيت بجديد وإنما هو تقريب لبعض الحقائق وقد يكون فيها ربط لواقع الناس اليوم وممارستهم حتى يتبين فساد تلك الممارسات لعلمهم يرجعون ونصحا وإرشادا لغيرهم لعلمهم يحذرون .

وأستطيع أن أقول أن الإسلام سدا لذريعة الشرك بكل أنواعه وأشكاله دعا إلى التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك ونهى عن كل ما يخل بالتوحيد من الأسباب والوسائل التي تعكس صفوه فالتوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه فأدنى شيء يخدشه ويؤثر فيه لهذا تشوبه اللفظة والشبهة والشهوة فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحکم وصار طبعاً يتعذر عليه قلعه .

لذا فإن الإسلام - كما أشرت - حرم كل وسيلة مفضية إلى الإخلال بقواعد التوحيد حتى يبقى مصون الحمى بعيداً عن عوامل الزيف والانحراف .

فالتوحيد الخالص يتم تحقيقه بالالتزام الكتاب والسنة وما عليه السلف الصالح وبالإعراض عن كل الأوهام والخرافات والبدع والأباطيل الدخيلة على الإسلام.

إن خطورة هذه الأفكار لا تقف عند حد فساد العقيدة الصحيحة أو تضليل أفهام المسلمين فحسب بل تتعداه إلى إعطاء خصوم الإسلام فرصة للطعن في الإسلام والنيل منه وذلك من واقع حال المسلمين .

ومن هنا أصبح لزاما علينا أن نتصدى لهذا الزيف الذي يشوه حقيقة الإسلام الناصعة .

ولا ينبغي لعاقل أن يغتر بكثرة من يفعل الشراكيات ويؤمن بالخرافات والأوهام والأباطيل فالاعتماد على الكثرة والاحتجاج بالسواد الأعظم على بطلان الشيء بقلة أهله قد أبطله القرآن الكريم . قال تعالى :

"وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون" (١) .

فالكثرة على خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة فالحق أحق بالاتباع وإن قل أنصاره "وقليل من عبادي الشكور" (٢) .

فالحق لا يعرف بكثرة الفاعلين وإنما يعرف بالأدلة الشرعية "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" (٣) .

وكما قيل :

عليك بطريق الحق ولا تستوحش الطريق لقلة السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين .

(١) سورة الأنعام ١١٦، ١١٧ .

(٢) سورة سبأ ١٣ .

(٣) سورة البقرة ١١١ .

فالمقصود أن من له بصيرة يتمسك بالتوحيد الخالص وإن قل العارفون به .
وأختم حديثي بقول النبي ﷺ :
(اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)

